٢٠٢٢

الاسلام حول العالم:
التاريخ والواقع

خالد بشير
كاتب أردني

الإسلام في الولايات المتحدة: من صعود الحركات الأفروأمريكية إلى مواجهة الإسلاموفوبيا

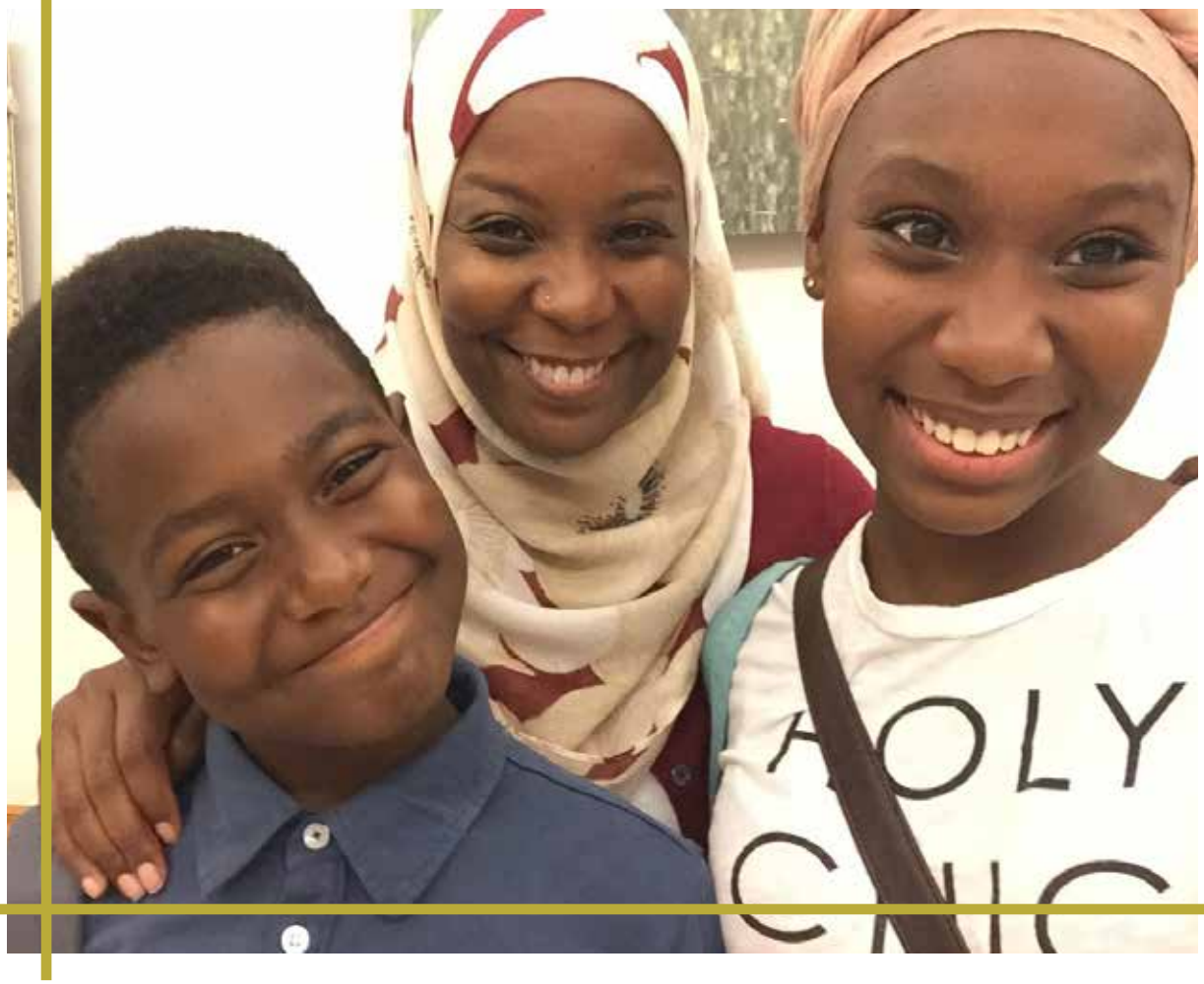

خلال فترة إدارة الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب وصلت إلى عضوية الكونغرس الأمريكي نائبتان مسلمتان، وبرزت تحديداً المحجّبة إلهان عمر، الأمريكية من أصل صومالي، وذلك بعدما هاجمها الرئيس ترامب بعبارات عنصرية، وما تبع ذلك من تلقيها رسائل تهديدات، وقد تمّ وضعها تحت الحماية الأمنية، هذه الحالة أفصحت عن وجود انقسام حادّ حول الإسلام وظهوره في الفضاء العام بالولايات المتحدة، فهل كانت الحالة هكذا دائماً؟

«ارتبط وصول الإسلام إلى الولايات المتحدة الأمريكية بشكل أساسي بحركة تجارة الرقيق عبر الأطلسي»

الإسلام الأفرو-أمريكي... تداخل العرقية والديانة

تشير تقديرات معهد «بيو» للدراسات إلى أنّ عدد المسلمين في الولايات المتحدة يبلغ اليوم قرابة الـ (٣،٥) مليون مسلم، يمثلون حوالي (١،١٪) من إجمالي مجموع السكان، وأنّ نحو ٢٥٪ منهم هم من الأمريكيين الأفارقة، ولكن، بحسب إحصاءات المعهد، فإنّ السود يشكّلون ما نسبته ٤٩٪ ممّن يعتنقون الإسلام.

لقد ارتبط وصول الإسلام إلى الولايات المتحدة الأمريكية بشكل أساسي بحركة تجارة الرقيق عبر الأطلسي التي ازدهرت منذ القرن الـ١٦، واستمرت حتى أواخر القرن الـ١٩. وتُقدّر نسبة المسلمين من إجمالي الرقيق الأفارقة الذين جُلِبُوا إلى مناطق الولايات المتحدة بحوالي الربع.

وفي المناطق الزراعية، وخاصّة في الجنوب الأمريكي، كانت سطوة التبشير والكنائس أضعف، فاستطاعت نسبة جيدة من الرقيق المسلمين الحفاظ على إسلامهم وصولاً حتى القرن الـ٢٠. وطوال تلك القرون كانت الحركات بين المسلمين الأفارقة تقتصر على طابع الجمعيات الصغيرة التي تنشأ وتتجمع حول شيخ ومعلم، إلّا أنّها في القرن الـ٢٠ دخلت طوراً جديداً مع ظهور منظمات ممتدة منتشرة في الولايات، وينتسب إليها أعضاء بالآلاف. وكان أهمّها وأبرزها حركة «أمّة الإسلام» التي تأسست عام ١٩٣٠م، وظهرت بدايةً في مدينة ديترويت (بولاية ميتشيغان) وتزعمها إلايجا محمد، وقد اتخذت لها تأويلات خاصّة للإسلام، امتزجت بأفكار قومية مرتبطة بالعرق الأسود، وركّزت معتقداتها على الإعلاء من شأن الجنس الأسود، واعتبار الجنس الأبيض مرادفاً للشيطان.

قامت الحركة على الجمع بين أركان الإسلام والأفكار القومية السوداء، وتبنّت الحركة الإسلام بمفاهيم خاصة غلبت عليها الروح العنصرية. ونظرت إلى الإسلام على أنّه إرث روحي ينقذ السود من سيطرة البيض عليهم. وتعرّضت الحركة للقمع خلال أعوام الحرب العالمية الثانية بسبب دعوتها لرفض الخدمة العسكرية، لكنّها ازدهرت في عقد الخمسينيات من القرن الـ٢٠، وذلك مع بروز «مالكولم ليتل»، المعروف باسم «مالكولم إكس»، الذي بات بمثابة الواجهة الإعلامية للحركة، وزار الجامعات

اختلف مالكوم إكس مع مبادئ «أمّة الإسلام»، واتجه للاقتناع بالمساواة بين جميع الأعراق والأمم

والحدائق وأماكن تجمع الناس، وتمكّن من جذب الكثيرين إلى الحركة، ومنهم الملاكم محمد علي كلاي.

بعد اغتيال الرئيس الأمريكي جون كينيدي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣، واختلاف مالكوم إكس مع إليجا محمد، بخصوص تصريحات مالكوم التي فُهم منها أنّه يستحسن اغتياله - بسبب سياساته التي كان يرى مالكوم أنّها تحاول الالتفاف على نضال السود - تصاعد الخلاف بين إليجا ومالكوم، ومن ثمّ ازداد الخلاف بعد رحلة مالكوم إلى الحج عام ١٩٦٤، وتأثره بما رآه في الحج من صور المساواة بين الأعراق في الإسلام، وهو ما غيّر مفاهيمه، وجعله مقتنعاً بتبنّي الإسلام بصورته المعروفة لدى عموم المسلمين، وذلك باعتباره ديناً يدعو إلى المساواة بين جميع الأعراق، ولا يدعو إلى تفوّق أمّة على أخرى، كما هو الحال في اعتقاد «أمّة الإسلام» بتفوّق السود على البيض. ومن ثمّ أعلن براءته من مبادئ حركة أمّة الإسلام، وشكّل جماعة جديدة سمّاها «منظمة المسجد الإسلامي»، وكان اغتيال مالكوم إكس عام ١٩٦٥ نقطة تحوّل فاصلة في سير حركة «أمّة الإسلام»، فقد تركها الكثيرون، وبدؤوا بتبنّي دعوة وأفكار مالكوم الإصلاحية والاتجاه للاعتدال أكثر فأكثر، وهو ما تزامن وتوافق في حينه مع «ثورة الحقوق المدنية».

ومع اكتمال مكتسبات حركة الحقوق المدنية خلال عقد الستينيات، وصولاً إلى قيام الرئيس جونسون في آب

«مع اكتمال مكتسبات حركة الحقوق المدنية خلال عقد الستينيات، بدأ المسلمون السود يتجهون إلى الاعتدال بشكل أكبر»

(أغسطس) ١٩٦٥ (بعد ٦ أشهر من اغتيال مالكوم إكس) بإصدار مرسوم نصّ على حقوق التصويت للسود، ومن ثمّ حظر التمييز في بيع أو استئجار المساكن عام ١٩٦٨. بدأ الأمريكيون الأفارقة شيئاً فشيئاً بالاندماج في الحياة العامّة، وهو ما انعكس على المسلمين السود وجعلهم يتجهون إلى الاعتدال بشكل أكبر، وهو ما ظهر في التحوّلات التي عرفتها حركة «أمّة الإسلام»، وخاصّة بعد رحيل إليجا محمد عام ١٩٧٥ وتولّي ابنه «والاس محمد» الذي بدأ بتغيير مبادئ الجماعة، فغيّر اسم جماعته إلى «البلاليون» (نسبة إلى بلال بن رباح وهو أحد الصحابة ذو اللون الأسود)، ومن ثمّ أصدر قراراً بضرورة صوم رمضان والاحتفال بعيد الفطر، وأصدر أمراً بأن تكون الصلاة على الهيئة الصحيحة المعروفة لدى المسلمين.

واليوم، ومع عودة التوجهات المسيحية اليمينية للصعود في الولايات المتحدة، خلال العقدين الأخيرين، تبرز النسبة المرتفعة للسود من بين المسلمين الجدد (حوالي النصف)، وهو ما يُفسّر أنّ الكثير منهم يعتنق الإسلام، إلى جانب الأسباب الإيمانية والاعتقادية، كشكل من أشكال مقاومة العنصرية المسيحية البيضاء. وقد مثل الإسلام باستمرار بالنسبة إلى جانب من الأفارقة الأمريكيين هوية روحية وقوّة رمزية في مجتمع ظلّ يخضع طويلاً لهيمنة الرجل الأبيض.

الاستقرار وبناء المؤسسات

بالتوازي مع تطورات الحالة الإسلامية لدى المسلمين من أصحاب الأصول الأفريقية، كان المهاجرون المسلمون إلى الولايات المتحدة يشهدون مساراً مختلفاً، وكان أوائل المسلمين - من غير الأفارقة - قد جاؤوا مع وصول المهاجرين القادمين من مناطق الدولة العثمانية، وخاصّة من بلاد الشام، في أواخر القرن الـ١٩، وكان معظمهم من المسيحيين، إلّا أنّه قد صاحبهم أعداد ضئيلة من المسلمين.

وفي عام ١٩٠٦ قام المسلمون البوسنيون في شيكاغو بإنشاء «جماعة الهجرة»، وهي أقدم مجتمع تعاوني للمسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي عام ١٩٠٧ قام المهاجرون التتار

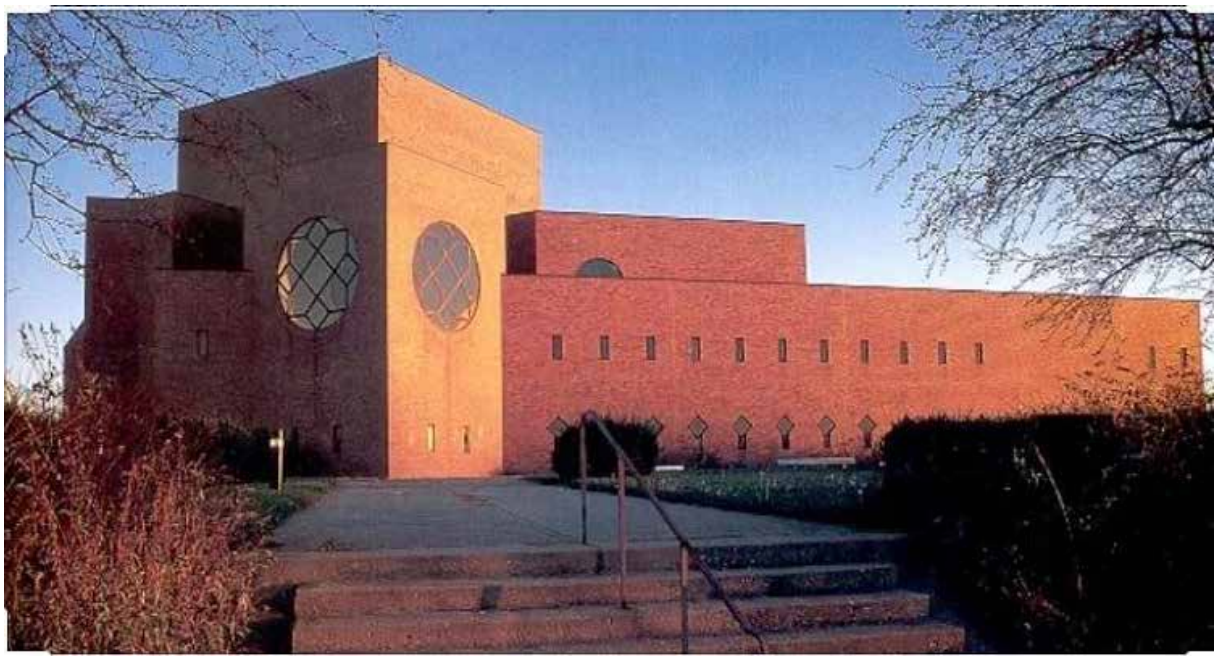

مقرّ الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية... تُعتبر أكبر منظمة للمسلمين في الولايات المتحدة

من روسيا وبولندا وليتوانيا بتأسيس أوّل منظمة إسلامية في نيويورك.

ومن ثمّ تزايدت أعداد المهاجرين المسلمين إثر انهيار الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى وقيام وتشكّل الاتحاد السوفيتي في مطلع العشرينيات من القرن الماضي، وهي التحولات التي تسببت بمغادرة عدد كبير من سكان البلدان المسلمة سعياً وراء الحرية الدينية، وكذلك بدافع البحث عن فرص أفضل للحياة.

في تلك الأثناء صدر قانون أمريكي للهجرة عام ١٩٢٤، الذي حدّدَ نسب قبول المهاجرين بحسب نسبة المقيمين في حينه من كل دولة؛ بغية الحفاظ على التركيبة الديمغرافية، وهو ما تسبب بالتالي بتقييد عدد المهاجرين المسلمين؛ إذ إنّ المقيمين القادمين من البلدان المسلمة كانوا أقلية حينها. إثر ذلك، انكمشت هجرة المسلمين خلال عقد الثلاثينيات، ولكنّها عادت لتتزايد من جديد في أعقاب الحرب العالمية الثانية، مع تدفق المسلمين من مناطق الاتحاد السوفييتي، المتضررين من سياسات الحكم في عهد ستالين، ومن أوروبا الشرقية والبلقان (وخاصة من ألبانيا، ويوغسلافيا، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا)، مع اشتداد قبضة الحكم الشيوعي في تلك البلدان، واستقرّ مهاجرو هذه الموجة في المدن الكبرى بالساحل الشرقي، مثل نيويورك وشيكاغو.

ساعدت تشريعات الهجرة الأمريكية في بداية الستينيات، حين أزال الرئيس جونسون القيود على الهجرة، وجرى تفعيل قانون جديد منح مزايا لأقارب المقيمين فى الولايات المتحدة وأصحاب

دونالد ترامب... أثناء توقيعه الأمر التنفيذي رقم (٩٦٧٣١)

المهارات المهنية والتقنية، إلى جانب ما تحقق من مكتسبات حقوقية خلال «ثورة الحقوق المدنية»، كلّ ذلك ساعد على زيادة أعداد المهاجرين المسلمين إلى أمريكا منذ أواخر الستينيات.

وشهدت موجة المهاجرين المسلمين في النصف الثاني من القرن الـ٢٠ تأسيس العدد الأكبر من المؤسسات والمراكز الإسلامية في الولايات المتحدة؛ ممّا ساعد على استقرار المسلمين ومكّنهم من الحفاظ على كيانهم وهويتهم.

وكان من بين أبرز هذه المؤسسات: الدائرة الإسلامية لأمريكا الشمالية (ICNA) التي تأسست في عام ١٩٧١ على يد المهاجرين القادمين من شبه القارة الهندية، وكذلك الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية (ISNA) التي تأسّست عام ١٩٨٢، والتي أعلنت سعيها لتحقيق الوحدة بين المسلمين في أمريكا الشمالية من مختلف الأعراق، ومجلس شؤون المسلمين العام (عام ١٩٨٨)، والمجلس الإسلامي الأمريكي (عام ١٩٩٠)، ومجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (عام ١٩٩٤)، وغيرها من الجمعيات والمؤسسات التي تخصصت في الدفاع عن الحقوق المدنية وحريات المسلمين الأمريكيين، إلى جانب التعليم واحتضان الفعاليات الإسلامية، والاعتناء بقضايا الأحوال الشخصية من الزواج والطلاق والجنازات وغيره.

في مواجهة «الإسلاموفوبيا»

كانت أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، وما نجم عنها من تصاعد الخطاب الموجه لمحاربة الإرهاب، مع الربط بين الإرهاب والديانة الإسلامية والمسلمين، كلّ ذلك كان له أثره المباشر على تصاعد خطاب

الناشطة الأمريكية المسلمة أمارا مجيد: المسلمون هم جزء أساسي من الهوية والثقافة الأمريكية

وجرائم الكراهية ضد المسلمين في الولايات المتحدة. وبرزت ظاهرة «الإسلاموفوبيا» وما مثلته من مشاعر الخوف من المسلمين، وما ينجم عنها من أفعال وممارسات تمييزية وتضييقية بحقهم.

وخلال الأعوام التالية لعام ٢٠٠١ تزايدت حالات الاعتداء على المسلمين، وتزايد تهديد حقوق المسلمين في الولايات المتحدة. وبالرغم من ذلك استمرت الهجرة من البلدان المسلمة، وخاصة من مناطق التوتر والصراع، كأفغانستان، والصومال، والعراق.

إلّا أنّه مع صعود موجة الهجرة الأخيرة بحدود أواسط العقد الماضي (٢٠١٤-٢٠١٦)، وتزامن ذلك مع صعود تنظيم «داعش»، وبروز عمليات حول العالم، بلغ رهاب الأجانب والمسلمين بشكل خاص ذروة جديدة له، وهو ما انعكس مباشرة مع انتخاب الرئيس دونالد ترامب في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٦، وهو الذي كان قد رفع شعارات ضمن حملته الانتخابية في حينها بتقييد أعداد المهاجرين إلى الولايات المتحدة. وبالفعل لم يُخلف دونالد ترامب وعده، وبعد توليه السلطات قام في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٧ بتوقيع الأمر التنفيذي رقم (١٣٧٦٩) الذي منع دخول البلاد على رعايا دول بعينها، واستهدف بشكل خاص الدول العربية والمسلمة، وهو ما كان له انعكاسات مباشرة داخل المجتمع الأمريكي، تمثّلت في إعطاء الدفعة للتوجهات اليمينية المُعادية للمسلمين ومظاهر التدين الإسلامي.

أمارا مجيد، ناشطة مسلمة شابة في الولايات المتحدة، تحدّثت لـ «حفريات»

ساعدت تشريعات الهجرة الأمريكية في بداية الستينيات على زيادة أعداد المهاجرين المسلمين إلى أمريكا

عن أعوام حكم ترامب والسياسات التي اتبعها والخطاب الذي تبنّاه، وهل ساهمت فعلاً في زيادة العنصرية والعدائية تجاه المسلمين في الولايات المتحدة؟ تقول أمارا: «نعم، أعتقد ذلك، إنّ إدارة الرئيس السابق دونالد ترامب والطريقة التي استخدم بها هذا الخطاب العنيف والمؤذي تجاه المسلمين في الولايات المتحدة، بالتأكيد أسهمت في خلق جو انقسامي وخلافي في الولايات المتحدة، أسهم في تحفيز ودفع معتقدات ومشاعر «رهاب الإسلام» (الإسلاموفوبيا) بين الأمريكيين. لقد لعب ترامب على تلك الأفكار التي تدفع الناس للخوف من المسلمين، وتجعلهم يرون أنّهم الغرباء القادمون من خارج الولايات المتحدة».

وتتابع أمارا: «إنّ قرار حظر استقبال المسلمين القادمين إلى الولايات المتحدة هو أمر ساذج وجاهل حقاً؛ لأنّ المسلمين هم من المؤسّسين للولايات المتحدة منذ نشأتها، هم موجودون منذ ما قبل قيامها واستقلالها، وبالتحديد هنا نتحدث عن المسلمين الأفارقة الذين جلبهم تجار الرقيق من غرب أفريقيا. لقد كان هؤلاء المسلمون هم الأوائل في الولايات المتحدة، فالمسلمون لم يأتوا فقط مع موجة الهجرة القادمة من باكستان والبلدان العربية في عقديْ الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، لا، لقد وُجدوا منذ وُجدت الولايات المتحدة. المسلمون هم جزء أساسي من الهوية والثقافة الأمريكية، ولا معنى البتّة لمنعهم. سأضرب مثالاً: كلنا نعرف لون الموسيقى الأمريكي الشهير، «البلوز» (Blues)، الباحثون في تاريخ الموسيقى اليوم يقولون إنّه قد بدأ وانطلق من بين المسلمين الأفارقة العبيد. أحيل هنا على

الكتـاب المهـم «عبيـد الله» (Servants of God)، وفيـه يذكـر المؤلـف مثـلاً أنّـه حـتى جـورج واشـنطن وتومـاس جيفرسـون كان لديهمـا عبيـد مسـلمون، لقـد كان المسـلمون مصاحبـين للولايـات المتحـدة منـذ التأسـيس والنشـأة».

وتختـم مجيـد: «إذاً مـا أقولـه هـو أنّ المسـلمين هـم جـزء أسـاسي مـن مـيراث الولايـات المتحـدة، وبالتـالي فإنّ قـرار ترامب بحظـر المسـلمين كان مـن الغرابـة بمـكان، فقـد صوّرهـم بأنّهـم غربـاء قادمـون مـن الخـارج. وبـلا شـكّ مـا قـام بـه ترامـب خلق حالـة مـن الانقسـام الزائـف بـين المسـلمين والأمريكيـين؛ وكأنّـه لا يمكننـا أن نكـون مسـلمين وأمريكيـين في الوقـت نفسـه، وهـذا بالفعـل مـا أسـهم بتعزيـز عقليـة «نحـن» في مواجهـة «هُـم»، الـتي خلقـت جـواً يكـون فيـه العـداء تجـاه المسـلمين مـبرراً ومقبـولاً، وغـدت الإسـلاموفوبيا مقبولـة ومـبرّرة، وهومـا لا يبـدو أنّ الولايـات المتحـدة قـد تعافـت منـه بعـد».

الإسلام في روسيا وآسيا الوسطى...

من القمع السوفييتي إلى النشاط الجهادي

عند الحديث عن المناطق الشاسعة الممتدة ما بين سهول أواسط آسيا شرقاً حتى «جبال الأورال» في عمق روسيا غرباً، سرعان ما تتبادر إلى الأذهان أسماء عديدة لشخصيات بارزة في التاريخ الإسلامي خرجت من تلك المناطق، من الإمام البخاري، إلى الترمذي، إلى النَسائي، إلى الفارابي. يؤشر ذلك، بلا شكّ، إلى أيّ مدى كانت هذه المناطق بمثابة مركز إسلامي في الحقب التاريخية الماضية، وكذلك يفتح باب التساؤلات حول المسارات التي مرّت بها وضعية الإسلام هناك وصولاً إلى الحقبة المعاصرة، ويسلّط هذا التقرير الضوء على فصول وجوانب منه.

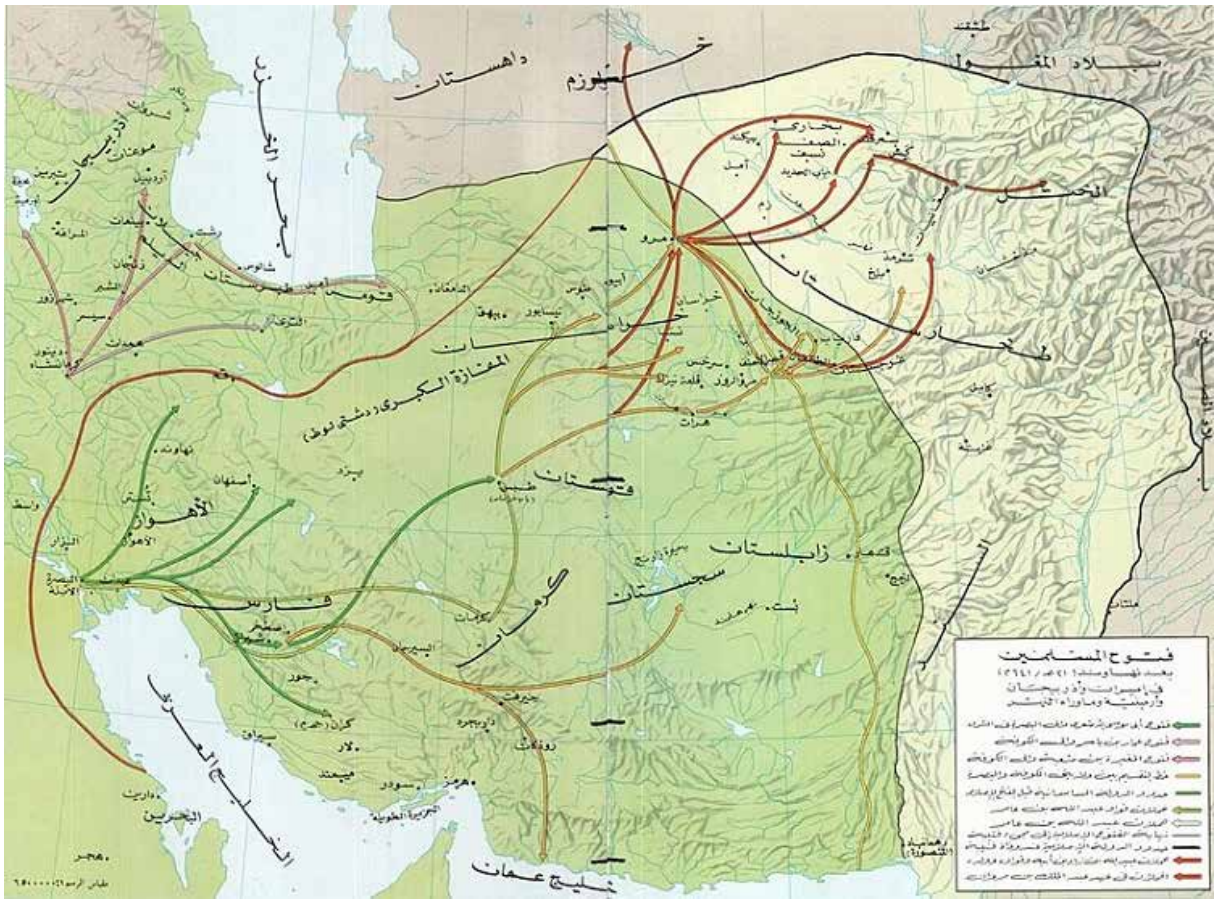

مسار المُسلمين لِفتح ما وراء النهر بعد الانتهاء من فُتُوحات بلاد فارس

الدخول والانتشار... كيف كانت البداية؟

تعود بدايات وصول الإسلام إلى مناطق «آسيا الوسطى» إلى عصور الإسلام الأولى، وذلك حينما فتح القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي، في القرن الهجري الأوّل، ما كان يُعرف في حينه بـ «بلاد ما وراء النهر»، وهي البلاد التي تلي بلاد خراسان وتفصل بينها وبين بلاد الصين.

وقد عرف التاريخ الإسلامي قيام عدد من سلالات الحكم والممالك الإسلامية في مناطق أواسط آسيا، كان أساسها من الأقوام التركية المنتشرة في تلك البلاد، ومن أبرز هذه الدول: دولة القراخانيين (٨٤٠-١٢١٢)، والدولة الغورية (٨٧٩-١٢١٥)، والدولة الغزنوية (٩٦١ - ١١٨٧)، ودولة السلاجقة (١٠٣٧-١١٩٤)، والدولة التيمورية (١٣٧٠- ١٥٠٧).

وقد اعتنقت الأقوام التركية الإسلام تدريجياً بداية من دخول الهياطلة والبختيين في الإسلام منذ وصوله في القرن الـ ٨ الميلادي، ومن ثمّ دخلت سلالة القراخانيين الإسلام في القرن الـ١٠ الميلادي (وتحديداً في عام ٩٣٤). وتُشير المصادر التاريخية إلى أنّ غالبية قبائل الأتراك الغُزِيّة (الأوغوز)، والقارلوق، وشعب الكومان، قد اعتنقوا الإسلام منذ النصف الثاني من القرن الـ١٠ الميلادي (الـ٤ الهجري)، على

«أدّى طريق الحرير دوراً مهمّاً في نشر الإسلام في أواسط آسيا، فكانت العقائد والأفكار تنتقل مع البضائع»

أيدي التجار والدعاة والصوفية، وقد أدى طريق الحرير دوراً مهمّاً في نشر الإسلام في أواسط آسيا، فكانت العقائد والأفكار تنتقل مع البضائع.

أمّا في روسيا، فتعود بداية دخول الإسلام إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حينما وصل المسلمون إلى «دربند» عام (٢٢) للهجرة (٦٤٣ للميلاد)، وهي إحدى مدن جمهورية داغستان (التي تقع بجنوب روسيا الاتحادية اليوم).

أمّا المنطقة الروسية الثانية التي دخلها الإسلام وانتشر فيها، فهي منطقة حوض «نهر الفولغا»، في عمق روسيا (وتحديداً أراضي جمهورية تتارستان الحالية في روسيا)، وذلك في زمن المملكة التي تُعرف في المصادر العربية التاريخية باسم «مملكة البلقار» (ويُعرفون أيضاً بـ: «بلغار الفولغا»)، والتي وجدت بين القرنين الـ٧ والـ١٣ الميلادي، فقد أسلم ملكها جعفر بن عبد الله (وكان اسمه ألمش بن يلطوار قبل أن يسلم) عام ٩٢٢، وكان أوّل من وحَّد قبائل بلغار الفولغا بمملكة واحدة، وتحت دين واحد هو الإسلام. وقد طلب البلقار من الخليفة العباسي في بغداد أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين، وبالفعل أرسل الخليفة العباسي المقتدر أحمد بن عباس، المعروف بابن فضلان، صاحب الرحلة الشهيرة.

وعندما غزا المغول روسيا في القرن الـ١٣ الميلادي، كانت منقسمة إلى دويلات، فقاموا باحتلال بلاد البلقار، إلّا أنّهم بعد فترة قصيرة اختلطوا بسكانها وتبنّوا لغتهم ودينهم، وعرف سكان الدولة الجديدة باسم «التتار»، أمّا دولتهم، فأطلق عليها اسم «خانيّة القبيلة الذهبية». في عام ١٢٤٥ اعتنق حاكمهم «بركة خان» الإسلام، أمّا في عام ١٣١٢، خلال عهد «أوزبك خان»، فقد أصبح الإسلام دين الخانيّة. وقد استمرّ الروس بالخضوع للتتار، واستمرّوا بدفع الجزية لهم حتى تمكنوا من التحرر، وذلك عندما هزم الأمير الروسي دميتري دونسكوي التتار في معركة عام ١٣٨٠، ومن ثمّ تواصل التوسع الروسي على حساب التتار خلال القرن الـ١٥.

التوسع الإمبراطوري... فصول من قصة الصدام الروسي ـ الإسلامي

بدأ عهد التوسع الفعلي لإمارة موسكو الروسية في عهد الأمير إيفان الثالث

موقع مملكة «بلغار الفولغا» بين مناطق الأوغوز وشعب الكومان جنوباً والروس الكيفيين شمالاً

(حكم ما بين ١٤٦٢ و١٥٠٥)، والذي وسّع حدود الدولة شرقاً على حساب الأراضي التي كانت تابعة لخانيّة القبيلة الذهبية، إذ أطلق حملات عسكرية ضد التتار المسلمين في الأعوام: ١٤٤٨، و١٤٥٤، و١٤٥٩. واستمرّ التوسع الروسي في عهد فاسيلي بن إيفان الثالث (حكم في الفترة: ١٥٠٥-١٥٣٣)، وهو الذي طلب منه البابا أن يطرد المسلمين إلى سيبيريا، تأراً لسقوط القسطنطينية بيد المسلمين الأتراك عام ١٤٥٣.

ومن ثمّ جاءت المرحلة الأقسى من الصدام في عهد «إيفان الرابع» المعروف بـ «إيفان الرهيب»، والذي توّج كأوّل قياصرة روسيا عام ١٥٤٧، وقام بتوسيع حدود الدولة الروسية باتجاه سيبيريا شمالاً وعلى حساب أراضي التتار شرقاً وجنوباً، وهو ما نجم عنه القيام بشنّ حرب شاملة ضدّ المسلمين التتار والمسلمين الباشكير، وقام بفرض التنصير عليهم، وهو ما تسبّب في تنصّر الكثير من التتار ومن قومية الباشكير

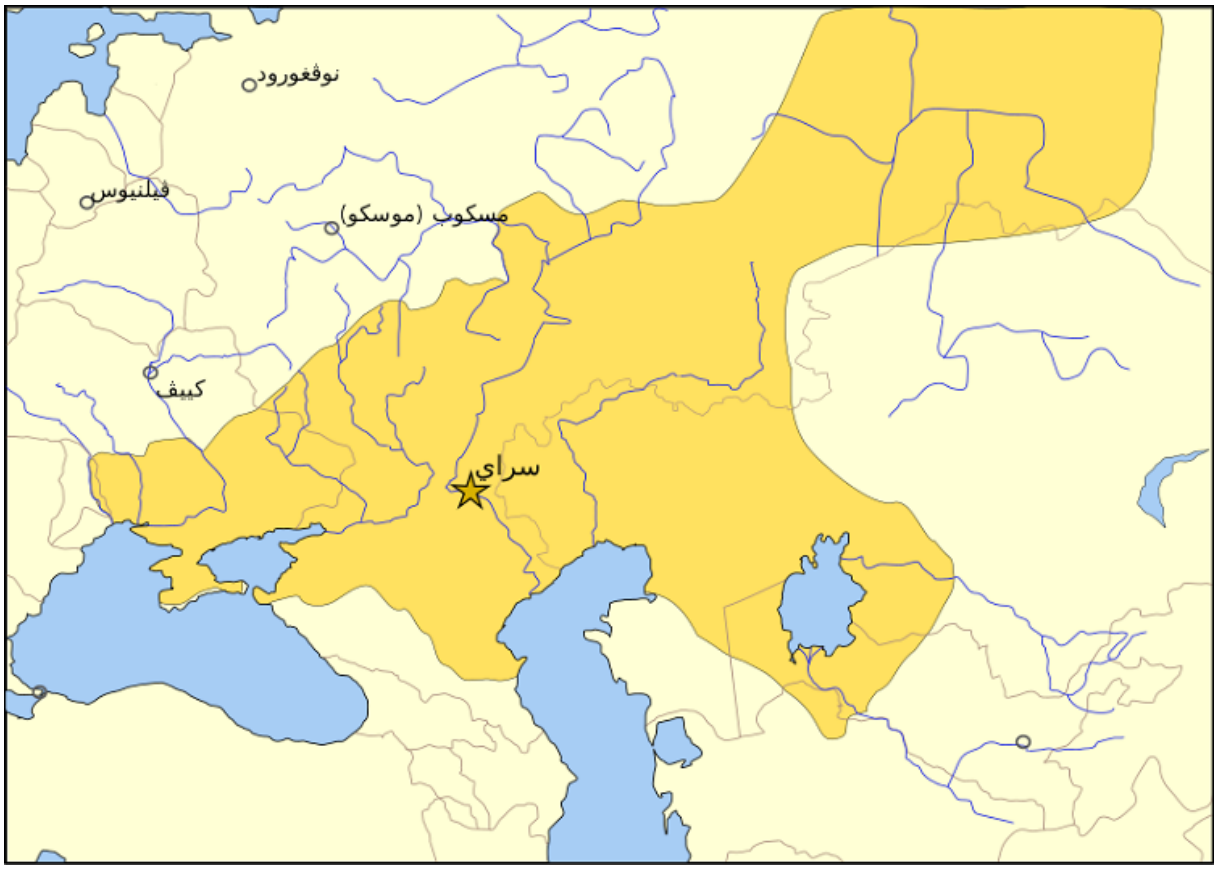

باللون الأصفر: خانية القبيلة الذهبية وموقع عاصمتها (سراي) في عهد الخان بركة خان (٧٥٢١-٦٦٢١)

المسلمين (القاطنين في جبال الأورال الجنوبية).

ومن ثمّ توسّعت روسيا بشكل هائل في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) وخلفائها من القياصرة الروس خلال القرن الـ١٩. وفي عهد القيصر نيقولا الأوّل (١٨٢٥-١٨٥٥) بدأ الغزو الروسي الواسع لآسيا الوسطى، وتمكنت الإمبراطورية الروسية بين عامي ١٨٤٧ و١٨٦٤ من إطباق سيطرتها على كامل كازاخستان، ومن ثمّ انتقلت جنوباً واستولت بين عامي ١٨٦٤ و١٨٦٨ على طشقند وسمرقند، وسيطرت على خانات «خوقند» و«بخارى» (في أوزباكستان اليوم). واستولت على غرب تركمانستان عام ١٨٨١، ثمّ سيطرت على تركمانستان الشرقية في عام ١٨٨٤، واستمرّت الإمبراطورية بالتوسّع حتى منعها البريطانيون من التوسع جنوباً باتجاه أفغانستان عام ١٨٨٥. وكان الاحتلال الروسي لهذه المناطق مصحوباً بهجرة روسية منظّمة إليها للاستيطان في أقاليمها الزراعية، ولتغيير تركيبتها السكانية.

الحقبة السوفييتية... مقاومة ثم تسليم

عند قيام الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧ كان المسلمون في آسيا الوسطى يئنّون تحت وطأة اضطهاد الحكم القيصري، وكان الزعماء البلاشفة يدركون هذه الحقيقة، لذلك سعوا للحصول

«خلال الثورة البلشفية كانت خطابات لينين الموجّهة للمسلمين تستميلهم، وتؤكد على ضمان حريتهم في ممارسة عباداتهم بعد نجاح الثورة»

على تأييد المسلمين لثورتهم نظراً لكثرة أعدادهم ورغبتهم الشديدة في الخلاص من الحكم القيصري، وهو ما ظهر في خطابات لينين الموجهة للمسلمين، والتي كانت تستميلهم وتؤكد على ضمان حرّيتهم في ممارسة عباداتهم وضمان الحفاظ على هويتهم.

وكان قسم من المسلمين قد بدأ بالتحرك منذ عام ١٩١٦ للاستقلال عن حكم الإمبراطورية الروسية، مستغلين انشغالها بالحرب العالمية الأولى، وأقاموا لهم دولة مستقلة في وادي فرغانة (تتقاسمه كلٌّ من أوزبكستان وقيرغيزستان وطاجيكستان اليوم)، عاصمتها مدينة «خوقند». وما كان من البلاشفة إلّا أن شنّوا هجوماً عنيفاً على خوقند في شباط (فبراير) ١٩١٨، وارتكبوا فيها مجزرة راح ضحيتها الآلاف؛ ممّا شكّل ضربة لمحاولة إقامة أيّ إمارة إسلامية مستقلّة عن حكم البلاشفة.

وفي هذه المرحلة برز اسم حركة «باسمشي»، التي أطلقت انتفاضة ممتدة ضد الحكم الإمبراطوري الروسي، ومن ثمّ السوفييتي، من قبل الشعوب المسلمة في آسيا الوسطى. وجاءت بدايتها مع الاحتجاجات ضد التجنيد الإجباري عام ١٩١٦. وبعدما استولى البلاشفة على السلطة وبدأت الحرب الأهلية الروسية (١٩١٨-١٩٢١)، شنّت هذه الحركة حرب عصابات، وتمكنت من السيطرة خلالها على أجزاء كبيرة من وادي فرغانة وجزء كبير من مناطق آسيا الوسطى، إلّا أنّه بحلول أواسط عقد العشرينيات، وبعد حملات الجيش الأحمر، تراجعت «باسمشي» وتراجع الدعم الشعبي لها، وبدأ الاتحاد السوفييتي تدريجياً يُحكم قبضته على آسيا الوسطى، وذلك بعد تقسيمها إلى (٥) جمهوريات، هي: أوزباكستان، وطاجيكستان، وقيرغيزستان، وتركمانستان، وأوزباكستان.

ومع تبنّي الاتحاد السوفييتي سياسة «إلحاد الدولة»، جرى التضييق على ممارسة الإسلام والأديان الأخرى، وهو ما اشتدّ تحديداً بعد وفاة لينين عام ١٩٢٤ وصعود ستالين إلى واجهة الحكم في الاتحاد السوفييتي. وشملت إجراءات التضييق هدم وإغلاق المساجد، وإلغاء المحاكم الشرعية، ومنع الكتابة بالحرف العربي، وفُرضت اللغة الروسية على المسلمين. ومن أشهر الإجراءات كانت حملة «هجوم» في عهد ستالين، وهي حملة استهدفت إزالة

من احتفالية «حرق الحجاب» خلال حملة «هجوم» في أوزبكستان... يوم المرأة العالمي عام ٧٢٩١

جميع مظاهر اللّامساواة بين الجنسين، وخاصة المتعلقة بالحجاب وتقاليده في وسط آسيا.

ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي: الصحوة والتحدّي الجهادي

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ استعاد الإسلام سريعاً مكانة مهمّة في روسيا وفي جمهوريات آسيا الوسطى، وجاء هذا الصعود للإسلام باعتباره الموروث الروحي والمعنوي الوطني الذي لم تتمكّن من محوه آلة الاضطهاد السوفييتية، وبرزت مظاهر العودة مع التوجه نحو التدين وبناء المساجد والمدارس الدينية والجامعات الإسلامية، وتأسيس العديد من الأحزاب السياسية ذات التوجهات الإسلامية في دول آسيا الوسطى.

بالتزامن مع حالة الصحوة الإسلامية، كانت حكومات جمهوريات آسيا الوسطى تشعر بالقلق من صعود حركات الإسلام السياسي، وبرزت تلك المخاوف تحديداً بعدما اندلعت الحرب الأهلية الطاجيكية عام ١٩٩٢ بين الحكومة الطاجيكية وائتلاف المعارضين بقيادة جماعة إسلامية متشددة تُدعى «حزب النهضة الإسلامي»، وهي الحرب التي استمرّت حتى عام ١٩٩٧، وأثبتت للجمهوريات السوفييتية السابقة

«الحرب الأهلية الطاجيكية في التسعينيات أثبتت للجمهوريات السوفييتية السابقة المخاطر التي تمثلها جماعات المعارضة الإسلامية»

شامل باساييف (يمين) إلى جانب «خطّاب» القيادي المعروف في الصراع الشيشاني-الروسي خلال التسعينيات وبداية الألفية

المخاطر التي تمثلها جماعات المعارضة الإسلامية.

وسرعان ما جاءت التحديات مع ما شهدته بلدان آسيا الوسطى من ظهور وتزايد لنشاط عدد من الحركات الجهادية، وبشكل متسارع منذ نهاية عقد التسعينيات من القرن الماضي. وبرز اسم الحركة الإسلامية في أوزبكستان، التي تأسست عام ١٩٩٦، ومن ثمّ بدأت نشاطها عام ١٩٩٩، في كلٍّ من أوزبكستان وقيرغستان بشكل خاصّ، وقد نشأت الحركة في الأساس بهدف إسقاط نظام الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف، الذي حكم البلاد بقبضة حديدية منذ استقلالها عام ١٩٩١، ومن ثمّ السعي لإنشاء دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية. ومن ثمّ اتجهت الحركة لتنفيذ أعمال إرهابية، وفي الأعوام اللاحقة أعلنت نفسها حليفاً لتنظيم القاعدة، وقد خفّ نشاطها منذ العام ٢٠١٠. وبعد صعود تنظيم «الدولة الإسلامية» عام ٢٠١٤ أعلنت قيادتها مبايعة التنظيم، وقد أفادت مصادر عدة

أنّه سقط قتلى من الحركة خلال الحرب في سوريا.

وفي روسيا، تصدّرت جمهورية الشيشان المشهد الجهادي في مرحلة ما بعد التفكك السوفييتي، وبرزت باعتبارها بؤرة استقطاب للنشاط الجهادي من حول العالم، وامتزج فيها البُعد الديني بالبُعد القومي والانفصالي الشيشاني. وقد شهدت حربين ما بين ١٩٩٤-١٩٩٧، و١٩٩٩-٢٠٠٦، بين القوات الروسية وبين القوات الشيشانية الانفصالية، بمشاركة المقاتلين الجهاديين المحليين والأجانب. ومع نهاية الحرب الثانية انتقل المقاتلون إلى الجبال، وتشكّلت تنظيمات جهادية صغيرة مثل «كتائب الإسلامبولي» في الشيشان التي ظهرت عام ٢٠٠٤.

ومع استقرار الأوضاع في الشيشان، وتراجع الحالة الجهادية الانفصالية في مناطق القوقاز الجنوبي، انتقل النشاط الجهادي شمالاً ليتركّز في القوقاز الشمالي، وظهرت الجبهة التي عُرفت باسم «إمارة شمال القوقاز» التي أسّسها القيادي الشيشاني شامل باساييف. وغلب عليها كذلك «السلفية الجهادية»، وضمّت عدداً من التنظيمات الجهادية الصغيرة، مثل «جماعة قبردين» في جمهورية «قبردين بلقار»، ومؤسسها إنزو إستيمروف، الذي قتلته القوات الروسية عام ٢٠١٠.

وهكذا، فإنّ حقبة ما بعد تفكّك الاتحاد السوفييتي شهدت نشاط عدد كبير من الأحزاب السياسية والحركات الجهادية الإسلامية، وهو ما أكدّ أنّ التأثير السوفييتي الذي هدف لفرض العلمانية بالقوة والإجبار لم يُفلح في مسعاه، وإنّما قد ولّد ردة فعل مغايرة وغير متوقعة، امتزج فيها البُعد الديني بالأبعاد القومية والعوامل الاقتصادية والسياسية، وتمثّلت في صعود هذه الأحزاب والحركات التي جعلت الدين أساس خطابها وشعاراتها.

الإسلام في غرب أفريقيا...

قصة الانتقال من الازدهار الحضاري إلى الجماعات المتطرفة

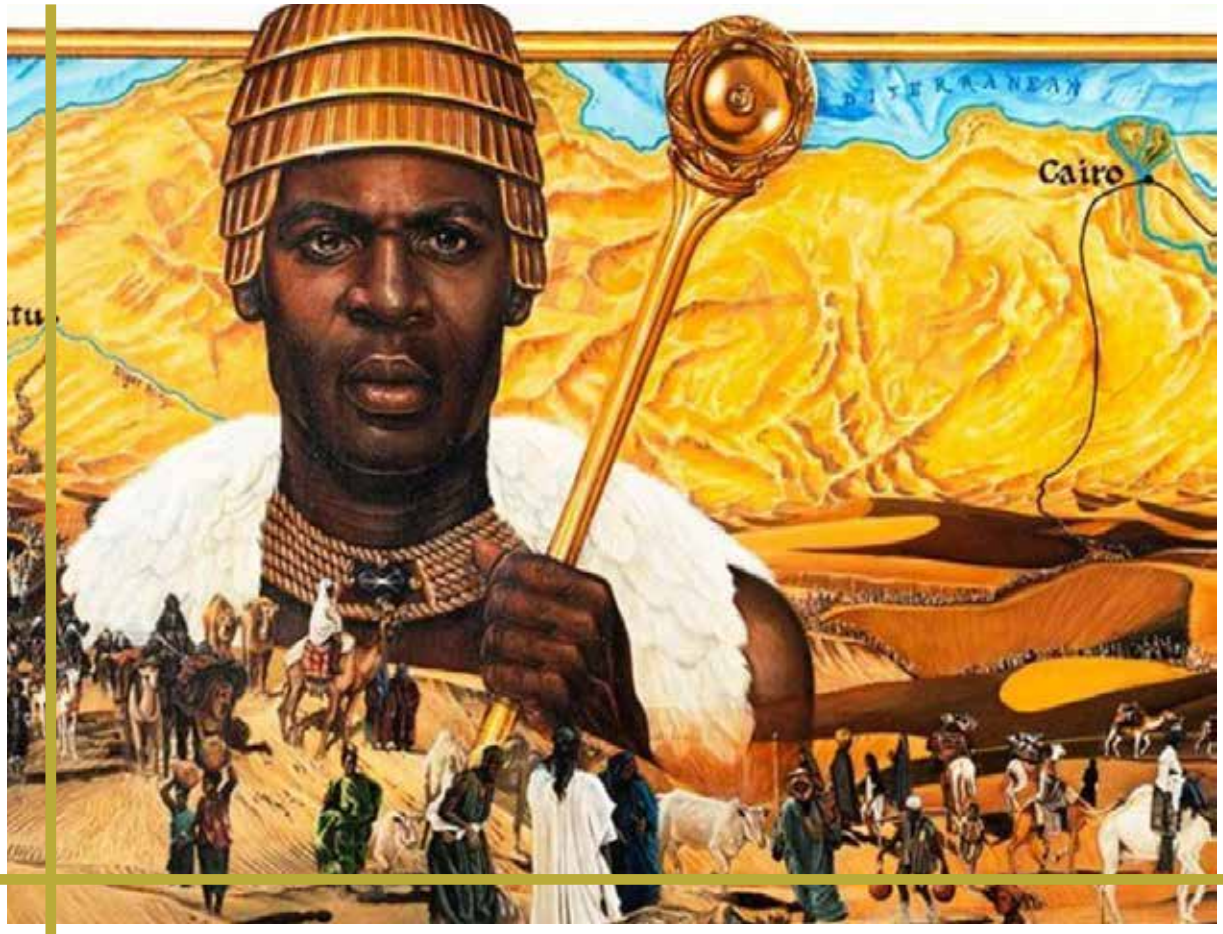

إلى الجنوب من إقليم شمال أفريقيا، الذي يغلب عليه طابع الحضارة العربية الإسلامية وفق مكوّناتها المختلفة المنتمية لحضارات وثقافات حوض البحر الأبيض المتوسط، يأتي إقليم شاسع، مترامي الأطراف، يُعرف باسم «غرب أفريقيا»، تختلف فيه وتتمايز المكونات والبُنى الحضارية، إلّا أنّه يبقى أهمّ ما يميزه هو التمازج الفريد الذي ضمّه ما بين الإسلام كحضارة وثقافة وديانة، وما بين العنصر الأفريقي الأسود، وما يحمله من ثقافات وعادات ومعتقدات موروثة،

شامل باسييف (يمين) إلى جانب «خطّاب» القيادي المعروف في الصراع الشيشاني-الروسي خلال التسعينيات وبداية الألفية

فكان للإسلام في غرب القارة الأفريقية تجربة فريدة ومتمايزة عمّا تطوّر في سائر الأقاليم والمناطق.

الدخول والانتشار... التجّار يحملون الرسالة

مع انتشار الإسلام عبر الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، وعلى امتداد مناطق شمال أفريقيا، ومنذ القرن الـ٧ الميلادي، ابتدأت التأثيرات بالامتداد جنوباً عبر الساحل الأطلسي والصحراء الكبرى، ليبدأ تدريجياً انتشار الإسلام في غرب قارّة أفريقيا، وهو ما جاء بشكل أساسي عبر التجار المسلمين الذين كانوا يصلون من شمال أفريقيا، وينتقلون إلى تلك الأنحاء، ومن ثمّ يستقرون هناك لفترات حتى يقضوا حاجتهم، وخلال ذلك كانوا يُعرّفون السّكان بالدين الجديد.

وتبرز «مملكة غانا» كإحدى أولى الممالك الإسلامية التي ازدهرت في تلك الأنحاء، وقد دخل الإسلام مملكة غانا منذ أواخر القرن الأوّل الهجري، وذلك بالتحديد في مدينة «كومبي»، وهي السوق الكبرى، والمدينة التجارية الأولى في المملكة آنذاك. ففي تلك المدينة سمح الملك الغاني للتجار المسلمين بالاستقرار في أحد أحيائها ليتحوّل إلى حيّ إسلامي داخل المدينة، فبنوا فيه المساجد. وعلى غرار هذا الحي، ظهرت تدريجياً عدة تجمّعات للمسلمين على امتداد مملكة غانا، أقام فيها فقهاء وأئمة وطلبة علم، إلّا أنّه، وبالرغم من ذلك، لم يتحوّل الحكام وغالبية أهل المملكة إلى

«في عهد مانسا موسى بات اسم تمبكتو لا يقلّ شأناً عن أسماء حواضر إسلامية أخرى مثل القاهرة والقيروان وفاس»

الإسلام في حينه بعد.

وفي القرن الـ١١ الميلادي، ومع وصول وامتداد دولة المرابطين، المنطلقة من المغرب الأقصى (موريتانيا والمغرب اليوم) إلى أراضي مملكة غانا، ومن ثمّ قيامها بضمّها على يد أمير المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني، وابنه الأمير أبو يحيى، أسلم ملك غانا في حينها، تنكامين، وذلك تحديداً عندما استولى المرابطون على العاصمة كومبي في العام ١٠٧٦. وخلال فترة حكم المرابطين انتشر الإسلام بشكل واضح في غانا. وما أن انهارت المملكة، بحلول القرن الـ١٣ الميلادي -بعد تعرّضها لهجوم قبائل السوسو الوثنيّة- حتى كانت أراضيها السابقة مناطق إسلامية خالصة.

الذروة... ازدهار علمي وحضاري واقتصادي

تتالى قيام الممالك والسلطنات الإسلامية في مناطق غرب أفريقيا، وبالتحديد بعد القرن الـ١١ الميلادي، وتفاوتت في اتساع رقعتها ومنجزاتها ومدى ازدهارها. وتبقى «مملكة مالي» هي الأبرز من بينها جميعاً، وهي التي بالإمكان اعتبارها بمثابة «ذروة» الممالك والحضارة الإسلامية في غرب أفريقيا، وذلك لما حققته من حضور على مختلف المستويات: الاقتصادية، والعلمية، والسياسية.

يذكر المؤرخ «ابن خلدون» أنّ شعوب مالي دخلت في الإسلام بحلول القرن الـ١٤ الميلادي، وذلك تحديداً مع ازدهار مملكة مالي، التي تأسست بحدود عام ١٢٣٥، وكانت سبباً في انتشار الإسلام بغرب القارة الأفريقية وعلى نطاق واسع، وخاصة في عهد الملك منسا موسى، أشهر حكامها وأغناهم، وهو أشهر ملك أفريقي أدّى فريضة الحج، حين انطلق من عاصمة مملكته، تمبكتو، وبصحبته الآلاف من أهل مملكته.

تأسّست مملكة مالي على أنقاض مملكة غانا، وذلك بعدما تمكّن الزعيم المالي، سوندياتا كيتا، من الإطاحة بحكم قبائل «السوسو»، وتأسيس مملكة مالي. وقد امتدّ حكم مملكة مالي لأكثر من (٣) قرون ونصف. في البداية كانت مملكة مالي دولة صغيرة، وخلال فترة وجيزة

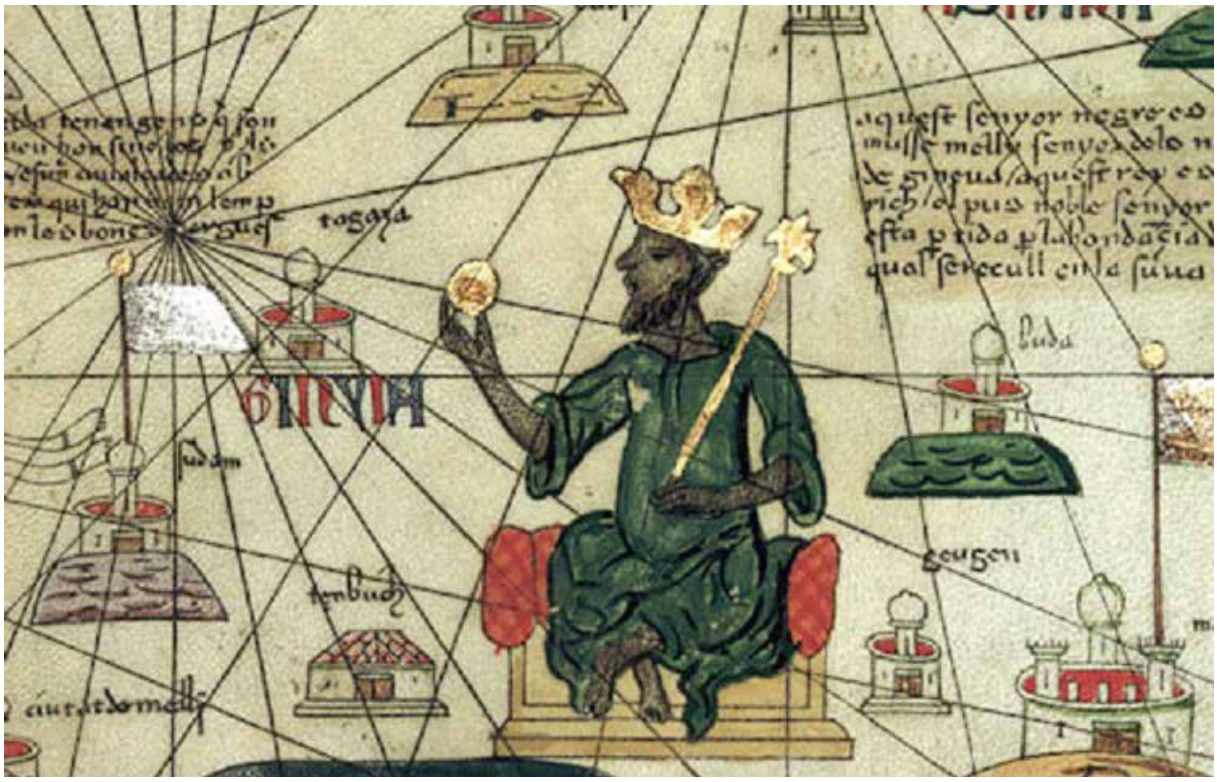

مانسا موسى كما صوّرته خريطة الأطلس الكتالوني (أهم خريطة في العصور الوسطى، رسمت عام ٥٧٣١)

استطاع سوندياتا أن يوسعها ويبرز اسمها على الخريطة، وذلك بعد أن ضمّ أراضي مملكة غانا السابقة كافة، وتمكّن من إخضاع مناطق شاسعة دانت له بالولاء، خلال عهده الذي استمر حتى وفاته عام ١٢٥٥. ومن ثمّ بلغت مملكة مالي أوج مجدها واتساعها في عهد مانسا موسى، الذي حكم بين عامي ١٣١٢-١٣٣٧، إذ امتدت المملكة في عهده من بلاد التكرور غرباً عند ساحل المحيط الأطلسي، إلى شرقي النيجر شرقاً، ومن تغازة (في شمال مالي اليوم) شمالاً إلى فوتاجالون على حدود نيجيريا جنوباً.

وصلت مملكة مالي خلال عهد موسى إلى ذروة قوتها وغناها، وذلك تحديداً بسبب العائدات التي جنتها البلاد من الضرائب المفروضة على التجارة الذاهبة والقادمة عبر مالي، إذ إنّ مالي وبحكم موقعها كانت تتوسط خطوط التجارة الممتدة ما بين سواحل الأطلسي جنوباً وسواحل المتوسط شمالاً، والتي كانت تمرّ عبرها المعادن والمواد الثمينة، من الذهب والنحاس والعاج والملح.

واكتسب مانسا موسى شهرة واسعة بسبب رحلة الحج الشهيرة التي قام بها وعُرفت بـ «حجة الذهب»، إذ يذكر ابن خلدون في تاريخه أنّ مانسا موسى اصطحب معه من بلاده للإنفاق على الرحلة (١٠٠) جمل لحمل الذهب. وبعد الحج، عاد مانسا موسى إلى العاصمة تمبكتو، ومعه علماء من الحجاز والشام

«كانت الطرق الصوفية في غرب أفريقيا عنواناً حاضراً وأساسياً في المواجهة مع قوى الاستعمار أواخر القرن الـ١٩»

والعراق ومصر، وأسّس في تمبكتو مؤسسات علميّة قاموا بالتدريس فيها. وتُعدّ مكتبة تمبكتو من أهمّ الصروح التي أقامها موسى، وبحيث بات اسم تمبكتو لا يقلّ شأناً في زمانه عن أسماء حواضر إسلامية أخرى، مثل القاهرة والقيروان وفاس.

في مواجهة الاستعمار القادم عبر الأطلسي

المرحلة الثالثة من قصة الإسلام في غرب أفريقيا تنقلنا إلى القرن الـ١٩، وذلك عندما اشتدت المواجهة مع حملات الاستعمار القادمة إلى القارة من أوروبا عبر المحيط الأطلسي، وفي هذه المرحلة برز اسم «خلافة سوكوتو»، التي أقامتها قبيلة «الفولاني» المسلمة، في شمال نيجيريا، وامتدّ حكمها ما بين عامي ١٨٠٤ و١٩٠٣، وضمّت تحتها أكثر من (٣٠) إمارة.

تأسست خلافة سوكوتو على يد الشيخ الفولاني (من قبائل الفولاني)، عثمان دان فوديو، وكان الشيخ عثمان مجدّداً مالكيّ المذهب، أشعري العقيدة، متصوفاً على الطريقة القادرية. وتمكّن الشيخ عثمان من توحيد إمارات الهوسا في شمال نيجيريا تحت سلطة واحدة ممثلة في خلافة سوكوتو.

وبينما كانت أحوال خلافة سوكوتو تشهد تراجعاً في أواخر القرن الـ١٩، كان الاستعمار البريطاني يثبّت أقدامه في حوض نهر النيجر عام ١٨٨٥، في المنطقة الواقعة اليوم ما بين نيجيريا والكاميرون، ومن ثمّ أخذ البريطانيون بالتقدم شمالاً إلى مناطق خلافة سوكوتو، فتصدى لهم المجاهدون، واندلعت الحرب بين القوّتين بدايةً من عام ١٨٩٣، إلّا أنّه ومع استمرار تدهور أحوال خلافة سوكوتو تمكّن المستعمر البريطاني من إكمال الاستيلاء على أراضيها في عام ١٩٠٢.

وباتجاه الغرب، وبالتزامن مع التقدّم البريطاني عبر حوض النيجر، كانت فرنسا تقيم مستعمراتها في ساحل العاج وغينيا الاستوائية، وجنوباً في بنين. وما لبث أن توسّع الاحتلال الفرنسي في حوض نهر السنغال باتجاه الشرق، ولكنّه واجه مقاومة شديدة، واندلعت المواجهة بين القوات الفرنسية وقوات مملكة التوكولور المسلمة بقيادة شيخو، وهو ابن الشيخ عمر بن سعيد الفوتي (عاش في الفترة: ١٧٩٦-١٨٦٤، وهو شيخ الطريقة التيجانية

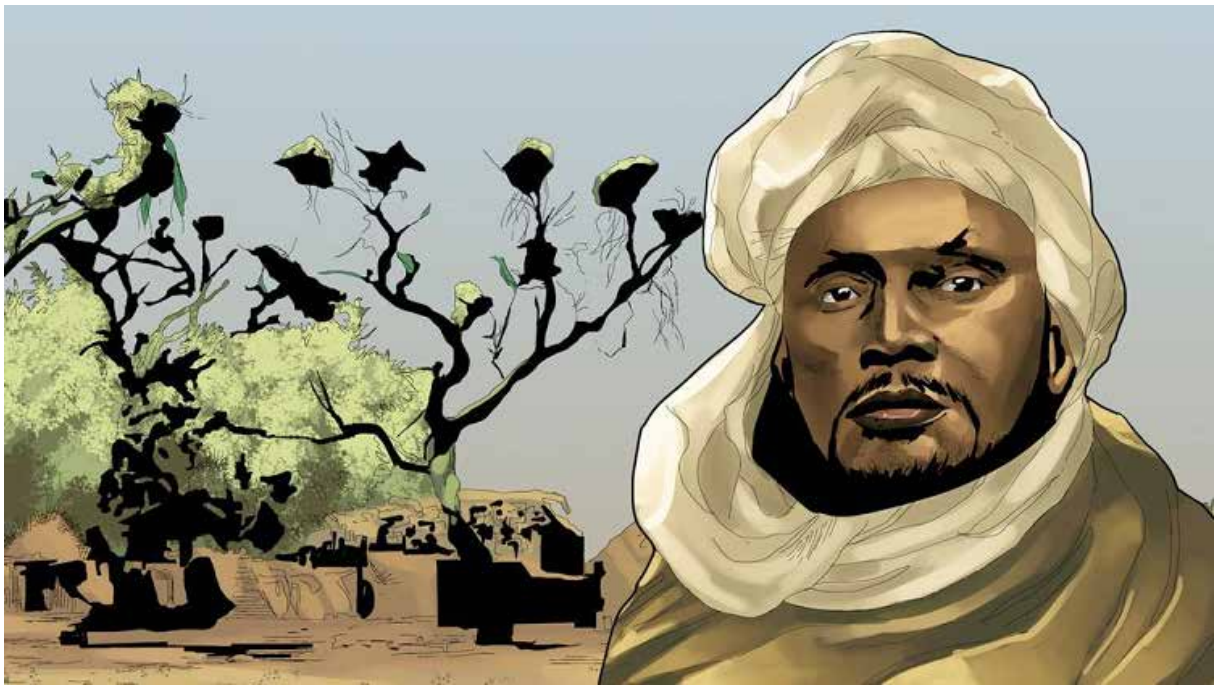

رسم لعثمان دان فوديو... قائد الجهاد في شمال نيجيريا ضد الاستعمار البريطاني

في غرب القارة الأفريقية في زمانه). واشتدت المواجهة إلى أنّ انهارت مملكة شيخو، ووصل الفرنسيون إلى مالي في عام ١٨٨٣. وبذلك يظهر كيف كانت الطرق الصوفية في غرب أفريقيا عنواناً حاضراً وأساسياً في المواجهة مع قوى الاستعمار أواخر القرن الـ١٩.

نشاط الجماعات المتطرّفة... خلفيات وأبعاد متداخلة

تحوّلت منطقة غرب أفريقيا خلال العقد الأخير إلى بؤرة عالمية لنشاط الجماعات الجهادية، ولعلّه من الدقة الإشارة إلى وجود تفاوت في نشاط هذه الجماعات بحسب البلدان، وهو ما يعود إلى عوامل محليّة عدة في كلٍّ منها، ممّا يُفصح عن الطبيعة المركبة القائمة خلف هذه الجماعات ونشاطها، فبينما يبرز في نيجيريا اسم تنظيم «بوكو حرام»، المرتبط تحديداً بقبيلة الهوسا وبصراع أهلي نيجيري ما بين المسلمين في الشمال والمسيحيين في الجنوب، على خلاف ذلك نجد أنّ العلاقة بين الطرق الصوفية التقليدية والسلطة السياسية السنغالية القائمة منذ عهد الاستعمار، قد أدت دوراً رئيساً في الاستقرار الاجتماعي في السنغال، ممّا أدى لإضعاف نشاط التنظيمات المتطرفة هناك.

وبالحديث عن هذه التحوّلات وخلفياتها، ونشاط الحركات الجهادية في غرب أفريقيا خلال العقدين الأخيرين، وتحديداً فيما يُعرف بمنطقة «الساحل الأفريقي» (الممتدة عبر النيجر، ومالي، وموريتانيا، وبوركينا فاسو)، يتحدث محمد حُرمه، الصحفي الموريتاني المختص في

الباحث حُرمه: لقد كانت قبائل الفولاني تجسّد بالفعل ما تبحث عنه القاعدة لتنفيذ مشروعها

شؤون غرب أفريقيا، لـ «حفريات»، وبداية من الحديث عن جذور هذا النشاط: «في تسعينيات القرن الماضي عاشت الجزائر ما عُرف بالعشرية السوداء، التي برزت فيها «الجماعة السلفية للدعوة والقتال»، التي كبّدت الجيش الجزائري خسائر كبيرة، قبل أن ينجح في أن يكبدها خسائر فادحة، وأرغمها عام ٢٠٠٥ على النزول من جبال الأوراس، متوجهة نحو الصحراء الكبرى، ومن هناك بدأت الاتصالات بين الجماعة الجزائرية وتنظيم القاعدة الأم. كان واضحاً آنذاك أنّ التنظيم الجزائري قرّر أن يتوسع، ويدخل ضمن استراتيجية تنظيم القاعدة، وبدأ باستهداف الرعايا الغربيين في جنوب الجزائر وفي شمال مالي والنيجر، قبل أن يشنّ هجوماً عنيفاً ضد الجيش الموريتاني في حامية «لمغيطي»، وقد خلّف عشرات القتلى في صفوف الجنود الموريتانيين (٢٠٠٥)، وشنّ هجمات أخرى عديدة في الفترة من ٢٠٠٥ حتى ٢٠٠٧».

يتابع حُرمه: «في الوقت نفسه كانت الجماعة تخوض حرباً دعائية واسعة، خاصة ضد موريتانيا التي تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل منذ ١٩٩٩، ونجحت في استقطاب الكثير من الشباب الموريتاني الغاضب، وفي عام ٢٠٠٧ بايعت «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» أسامة بن لادن، وأصبحت أحد فروع القاعدة، وأصبح

«تعاني قبيلة الفولاني من مظالم تاريخية، يسهل استغلالها في دعاية القاعدة، فهي لم تجد ذاتها في الدولة الوطنية الحديثة»

اسمها «تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي». تشكّل التنظيم من عدة إمارات، موزعة على مناطق متفرقة من الجزائر، ولكنّ قوة التنظيم تركزت في «إمارة الصحراء»، التي تشمل، بالإضافة إلى جنوب الجزائر، مناطق واسعة من الصحراء الكبرى، واستمدّت هذه الإمارة قوتها من تنوع المنخرطين في وحداتها القتالية، فكانت القيادة العسكرية لدى الجزائريين، والإفتاء والوعظ والشورى عند الموريتانيين، بينما يتولى الطوارق أمور اللوجستيك».

وعن مصادر التمويل وكيفية الاستفادة من اضطرابات «الربيع العربي»، يضيف: «اعتمد التنظيم خلال الأعوام اللاحقة على خطف الرهائن الغربيين لتمويل أنشطته، من الفدى التي تدفعها الدول الغربية، كما هيمن على طرق شبكات تهريب المخدرات والسجائر والبشر والسلاح، وأصبح يأخذ عمولات مقابل المرور من مناطق نفوذه. ولكنّ المنعرج بدأ مع اندلاع الحرب الأهلية في ليبيا، وخروج ملايين قطع السلاح من الأراضي الليبية نحو منطقة الساحل الأفريقي، وخاصة دولة مالي حين وصل إليها مئات المقاتلين الطوارق الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي، وبحوزتهم الكثير من السلاح، وأسّسوا عام ٢٠١١ «الحركة الوطنية لتحرير أزواد» التي أعلنت نيتها تحرير شمال مالي، وتأسيس دولة علمانية فيه. وبالفعل بدأ الطوارق تمرّدهم في شهر كانون الثاني (يناير) ٢٠١٢، ونجحوا في السيطرة على عدد من مدن الشمال، ملحقين هزائم بالجيش المالي المفكك وغير المدرَّب، الذي يعاني من نقص في التجهيز والتأطير، من جهتهم كان مقاتلو القاعدة يراقبون القتال، بل إنّهم كانوا يدعمون الطوارق، وحين أعلنت الحركة الوطنية لتحرير أزواد في شهر نيسان (أبريل) ٢٠١٢ دولة أزواد المستقلة، ووصفتها بأنّها «دولة علمانية»، اندلع القتال مع القاعدة التي تسعى لإقامة إمارة إسلامية في المنطقة، ولم تحتج القاعدة لكثير من الوقت حتى تنتصر».

يتابع حُرمه تحليل ما تلا تلك المرحلة، خاصّة فيما يتعلق بالتدخل العسكري الفرنسي، ويوضح: «أعتقد أنّ القاعدة حين سيطرت على شمال مالي لم تكن تفكر في البقاء هناك،

لأنّ المجموعة الدولية لن تسمح لها بذلك، وبالتالي عملت على بناء مشروعها الاستراتيجي الحقيقي، وهو التغلغل في المجتمع الأفريقي، والتوسع سرّاً نحو الجنوب؛ لأنّ هدفها البعيد هو الوصول إلى «خليج غينيا»، وقد أصبح هذا الهدف قريباً من أن يتحقق بعد مرور (١٠) أعوام. لقد اتضح ذلك حين كان قادة القاعدة يستثمرون الكثير من الوقت والجهد في التواصل مع قبائل «الفولاني» المنتشرة في شمال ووسط مالي، وهي قبائل منتشرة في أغلب الدول الأفريقية، وتعاني من مظالم تاريخية، يسهلُ استغلالها في دعاية القاعدة، فهي التي نشرت الإسلام وأقامت إمارات تطبق الشريعة خلال القرنين الـ١٧ والـ١٨، ولكن كلّ ذلك انهار على يد المستعمر الغربي، ولم تجد هذه القبائل ذاتها في الدولة الوطنية الحديثة، وبالتالي ظلت على الهامش، لقد كانت بالفعل تجسّد ما تبحث عنه القاعدة لتنفيذ مشروعها. وحين تدخل الفرنسيون عام ٢٠١٣ عسكرياً في مالي، ووسّعوا من عملياتهم العسكرية في جميع دول الساحل، وبدأت حرب عصابات، وما تزال مستمرة حتى اليوم، اتضح أنّ مشروع القاعدة لم يتوقف، بل إنّه أصبح يسير بأسرع ممّا خطط له، مستفيداً من التعقيدات الاجتماعية والإثنية في منطقة لم تعرف الاستقرار منذ عدة قرون. وفي عام ٢٠١٥ تأسّست «جماعة نصرة الإسلام والمسلمين»، وهي عبارة عن تحالف مختلف الكتائب المنضوية تحت إمارة القاعدة، وهي: إمارة الصحراء (القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي)، أنصار الدين (الطوارق)، جبهة تحرير ماسينا (الفولاني)، المرابطون (موريتانيون وجزائريون)».

ويخلُص إلى أنّه: «اليوم يمكننا القول إنّ مشروع القاعدة في منطقة الساحل لم يعد ذلك المشروع الذي يقوده الجزائريون والموريتانيون، وإنّما أصبح مشروعاً محليّاً متوطناً، يقوده أبناء المنطقة من قبائل «الفولاني» و»الطوارق»، وبالتالي نسمع بين الفينة والأخرى بعض المطالب في مالي وبوركينا فاسو والنيجر تعتبر أنّ الحل الوحيد هو «الحوار» مع هؤلاء القادة، رغم الرفض الصارم من طرف فرنسا والمجموعة الدولية لذلك. المؤكد هو أنّ هؤلاء القادة المحليين نجحوا في إقناع الكثير من الشباب للالتحاق بهم، في ظلّ فشل الدول في أن تُقدّم بديلاً مقنعاً لهؤلاء الشباب الذين يعانون الجهل والفقر والمرض، ولكن أخطر من كل ذلك أنّهم فاقدون للأمل ومحبطون، ويعتقدون أنّ الدولة هي السبب في كلّ ذلك، إنّها عدوهم الأول. إنّ الفشل في تحقيق التنمية وانتشار الفساد عوامل، من ضمن أخرى، تساهم بشكل كبير في استمرار توسع القاعدة في المنطقة، كما ساعدت في فتح الباب أمام دخول داعش على الخط أيضاً، لتصبح منطقة الساحل أكبر سوق للأسلحة، تستهدفه الكثير من العصابات

وشـبكات التهريـب. هـذا بالإضافـة إلى تداعيـات جائحـة كورونـا وموجـة الجفـاف الناتجـة عـن الاحتبـاس الحـراري، الـتي ترغـم مئـات آلاف الأشـخاص عـلى مغـادرة أماكـن سـكنهم، ليلتحقـوا بالملايـين الذيـن فـرّوا مـن قراهـم بسـبب الحـرب الدائـرة منـذ قرابـة (١٠) أعـوام».

ويختـم حُرمـه: «الوضـعُ معقـد جـدّاً، ومرشّـح للكثـير مـن التعقيـد والتوتـر، خاصـة بعـد موجـة الانقلابـات العسـكرية، وتحـوّل الحـرب عـلى الإرهـاب الـتي تقودهـا فرنسـا إلى صراع دولي جيو-اسـتراتيجي مـع روسـيا الصاعـدة بقـوة في المنطقـة، وهـي أمـور مـن شـأنها أن تصـبّ الزيـت عـلى نـار عـدم الاسـتقرار».

الإسلام في الصين:
تاريخ طويل من الحضور...
هل كان عنوانه الاندماج أم الاضطهاد؟

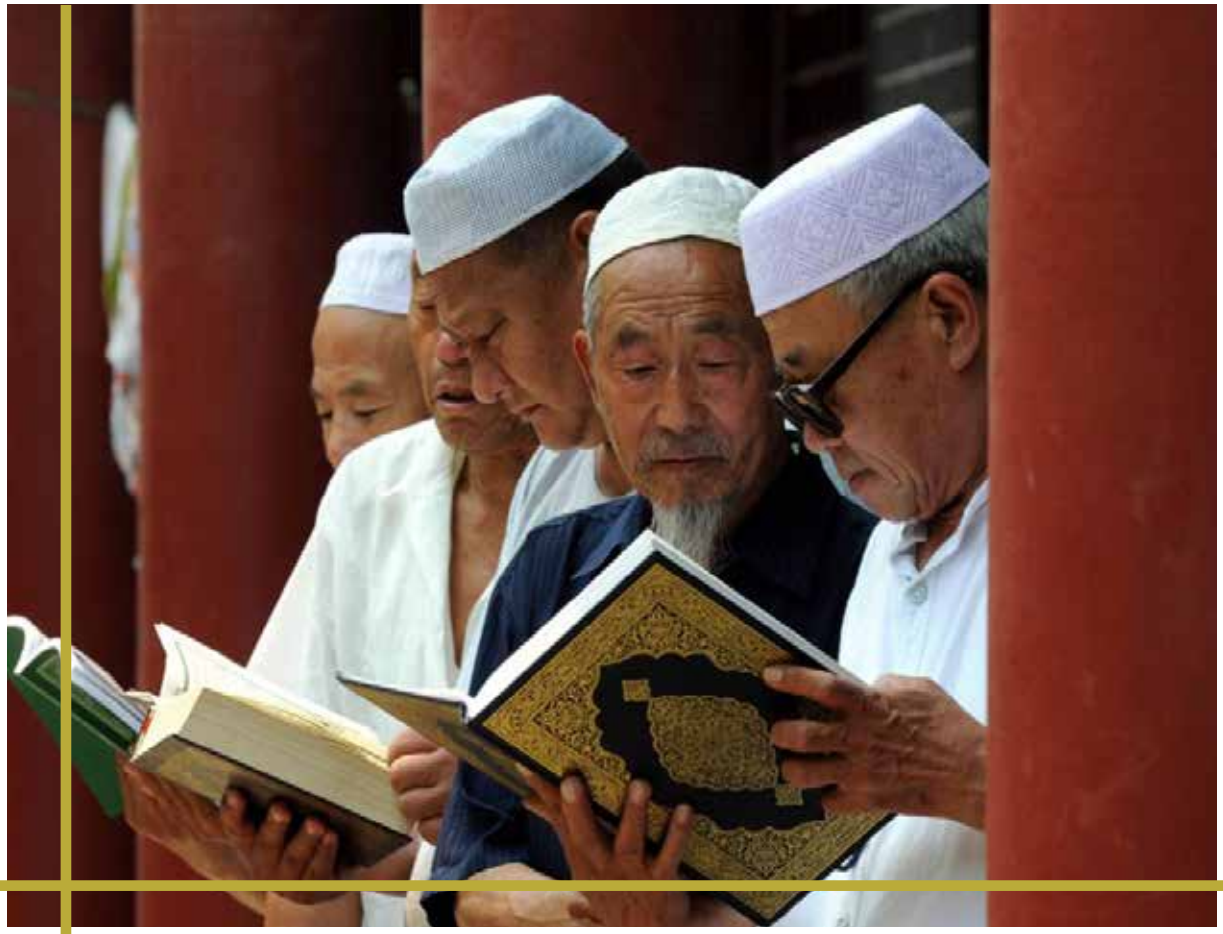

يركّز الزخم الإعلامي خلال الأعوام الأخيرة على تناول واقع وأحوال المسلمين الإيغور في إقليم «سينكيانج» (شمال غرب الصين)، ويقترن هذا التركيز مع تحوّلات العلاقات والتنافس الاقتصادي-السياسي على الساحة الدولية بين الصين والدول الغربية خاصّة. إلّا أنّ اقتصار عرض الحضور الإسلامي في الصين على الإيغور وتطوّرات أحوالهم اليوم فيه اختزال كبير لتاريخ طويل من الحضور الإسلامي في الصين امتدّ عبر (١٣) قرناً، وشمل مختلف أرجاء وأنحاء الصين، عَرَف فيها تقلبات ومراحل عديدة متباينة.

«هوايشينغ» جامع كانتون الكبير أقدم جامع في الصين

البدايات والدخول... التجارة أساساً للاتصال

يمكن إرجاع بدايات التواصل ما بين بلاد الصين والإسلام إلى فترات تعود إلى القرن الهجري الأوّل (الـ٧ الميلادي)، وقد تحقق هذا الاتصال عن طريق محورين: الأول بريّ، والثاني بحريّ، فأمّا المحور البري، فهو محور له جذور قديمة سابقة على ظهور الإسلام، وأساسه الطريق التجاري المعروف بطريق الحرير، الذي ربط الصين منذ قرون ما قبل الميلاد بسواحل حوض البحر الأبيض المتوسط.

ومع الفتوحات الإسلامية، وتجاوز الجيوش المسلمة مناطق الإمبراطورية الساسانية، ومن ثمّ عبورها نهر «جيحون» وإخضاعها لخانات الهياطلة في بلاد تركستان، وما عُرف ببلاد «ما وراء النهر» بقيادة القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، وصل المسلمون بذلك إلى مناطق شمال غرب الصين اليوم. وهناك تأسست مراكز إسلامية مثل مدينة كاشغر ومدينة أورومتشي، وكانت هذه المدن دوماً مركزاً لتوافد واستقرار التجار المسلمين القادمين من الغرب، من عرب وفرس وترك. وكان هذا الطريق التجاري محوراً دائماً للاتصال بين التجار المسلمين القادمين من الغرب

«كان طريق الحرير التجاري محوراً للاتصال بين التجار المسلمين القادمين من الغرب وبين بلاد الصين في الشرق»

وبين بلاد الصين في الشرق، وبذلك فقد كان لطريق القوافل الممتد بين غرب آسيا والصين أثره في انتشار الإسلام، وخاصّة في المناطق الواقعة اليوم شمال غربي الصين.

أمّا محور الاتصال الآخر الذي برز أيضاً خلال عصر أسرة «تانغ» (٦١٨-٩٠٧) الصينية، فهو المحور البحري، وقد أسهم هذا المحور تحديداً في وصول الإسلام إلى مناطق شرق وجنوب الصين، وجاء تطور هذا المحور مع نشاط الحركة التجارية عبر البحر في العالم الإسلامي، وبشكل خاص خلال العصر العباسي. وعلى متن السفن البحرية توالى وصول الرحلات التجارية إلى الموانئ الصينية قادمة من البلدان الإسلامية، وبشكل خاص من الموانئ المطلة على الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي. وأخذ المسلمون ينتشرون في الصين انطلاقاً من المراكز الساحلية نحو الداخل الصيني، ولعلنا نجد في رحلة أبي سعيد السيرافي وصفاً مسهباً لهذه الرحلات، وكذلك في رحلة الرحالة الطنجيّ الشهير ابن بطوطة إلى الصين. وفي هذا السياق، برزت تحديداً مدينة كانتون في جنوب الصين (وهي مدينة «غوانزو» المعاصرة) التي كانت ترسو سفن التجار المسلمين في مينائها بكثرة، وقد ظهر عدد من أقدم المساجد في الصين، كمسجد «هوايشينغ»، المعروف أيضاً بجامع «وقاص» أو «جامع كانتون الكبير»، ويُذكر على أنّه أقدم مسجد، ويقال إنّه أقدم جامع في الصين، ويبلغ عمره (١٣٠٠) عام.

أمّا خلال عصر أسرة سونغ (٩٦٠-١٢٧٩)، فقد بدأ المسلمون يشكّلون تأثيراً اقتصادياً أكبر، ويكتسبون حضوراً أكبر في البلاد. وخلال هذا العصر وصل عدد من هجرات المسلمين إلى الصين، وذلك برعاية رسمية من الحكم، ففي عام ١٠٧٠ دعا الإمبراطور شين سونغ حوالي (٥) آلاف من الرجال العرب من مدينة بخارى ليستقروا في الصين، وكان الإمبراطور يريد الاستعانة بهم في حملته ضدّ إمبراطورية «لياو» المناوئة في شرق وشمال البلاد. وفي وقت لاحق استقرّ هؤلاء مع أسَرهم في شرق الصين، وكان الهدف هو إنشاء منطقة عازلة بين الصين و«لياو». وقد تكررت مثل هذه الهجرات خلال تلك الفترة، وهو ما يُظهر أنّ الصينيين كانوا يرون في المسلمين مكوّناً قريباً منهم ومتصالحاً معهم في مواجهة الأعداء.

وفي عهد أسرة «يوان» المغولية التي حكمت الصين في القرن الـ١٣ الميلادي ازدادت أعداد المسلمين بشكل كبير. وتشير التقديرات إلى أنّ عدد المسلمين مع مطلع القرن الـ١٤ كان

مسجد «جين جوي» شيّد في عصر سلالة مينغ، ويُلاحظ التشابه التام مع نمط بناء المعابد الصينية

قد تخطى حاجز الـ(٤) ملايين. وقد زاد نفوذ المسلمين خلال العهد المغولي، وشغلوا مناصب مهمّة في الدولة، وتولى المسلمون حكم (٨) ولايات صينية من بين (١٢) كانت الصين مقسّمة بينها في حينه.

عصر أسرة مينغ... الاندماج الكامل

مع انتهاء العهد المغولي وبداية حكم أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤) اتجهت الصين إلى العُزلة عن الخارج أكثر فأكثر، وتراجعت الهجرة من البلدان الإسلامية بشكل كبير. وفي هذا العصر أصبح المسلمون في الصين منعزلين شيئاً فشيئاً عن بقية العالم الإسلامي، وصاروا تدريجياً صينيين؛ يتكلمون اللغة الصينية ويلبسون اللباس الصيني، وأصبحوا مندمجين بدرجة كبيرة في المجتمع الصيني، وذلك بشكل خاص فيما سوى مناطق الشمال الغربي.

وبدأت هندسة المساجد المعمارية باتباع الهندسة المعمارية الصينية التقليدية، فبينما كانت المساجد في السابق، وخاصة في غرب الصين، تحتوي على المآذن والقباب، باتت المساجد الصينية في المناطق الأخرى تشبه المعابد الصينية في تصميمها، وبمرور الوقت بدأ المسلمون يتكلمون باللهجات المحلية ويكتبون بالكتابة الصينية.

وعند الحديث عن الاندماج في الثقافة والهوية ونمط الحياة الصينية فإنّنا نتحدث تحديداً عن القومية المعروفة اليوم بـ «الهوي» التي تشكّل غالبية تعداد المسلمين في الصين اليوم، إضافة إلى قوميات أخرى صغيرة مثل

المقاتلون المسلمون الصينيون يتجمعون للقتال ضد اليابانيين... صورة من عام ٩٣٩١

«السالار» و«دونغشيانغ»، وهم منتشرون في أنحاء مختلفة من الصين، في الجنوب والوسط والشمال، ويتحدثون بلغة الماندرين، لغة عرقية الهان، العرقية الغالبة في الصين. كلّ ذلك أسهم في تعزيز اندماجهم، وذلك خلافاً للمسلمين الصينيين المنتمين للعِرقيات التركية، مثل الإيغور والقزق والقرغيز، الذين يتمركزون في شمال غرب البلاد بشكل أساسي، والذين حافظوا على قدر أكبر من الاستقلالية والانفصال عن قومية الهان.

عصر سلالة المانشو... صِدام واضطرابات

بعد سيطرة أسرة «تشينغ» على الحكم في الصين عام ١٦٤٤، انحاز المسلمون إلى جانب أسرة مينغ، وشاركوا في ثورتهم على الحكم الجديد. وكان حكّام أسرة تشينغ ينتمون إلى قومية مانشو، وهي من القوميات ذات الأقلية، وليست من الهان ذات الأغلبية في الصين.

وقد شهدَ عصر أسرة تشينغ (١٦٤٤-١٩١١) (٥) تمرّدات من قبل المسلمين، وبسبب هذه العلاقة المتوترة اتجه أباطرة هذه الأسرة لاضطهاد المسلمين والتضييق عليهم، وهو ما كان يسبب تمرّدهم باستمرار. وكان أباطرة تشينغ يتبعون سياسة التفريق بين المسلمين، فمثلاً عندما وقعت انتفاضة المسلمين «الهوي» و«السالار» من أتباع «الطريقة الجهريّة» الصوفية عام ١٧٨١، استعانت الأسرة الحاكمة بأتباع «الطريقة الخفيّة» من أجل قمع الانتفاضة، وذلك بالرغم من أنّهما طائفتان مسلمتان متفرّعتان عن الطريقة نفسها، النقشبندية.

«في عصرِ سلالة مينغ أصبح المسلمون في الصين منعزلين شيئاً فشيئاً عن بقية العالم الإسلامي، وصاروا تدريجياً صينيين»

وبلغت الاضطرابات ذروتها في النصف الثاني من القرن الـ١٩، وذلك مع وقوع ثورة «دونغان» التي قام بها أيضاً مسلمو الطريقة الجهريّة عام ١٨٦٢، وانتهت بالفشل عام ١٨٧٧، وكان من نتائجها هجرة عدد كبير من مسلمي الهوي إلى أراضي الإمبراطورية الروسية، ليُعرفوا هناك باسم «شعب الدونغان». كذلك كانت نتيجة ثورة «بانثاي» التي اندلعت في مقاطعة يونان في الفترة نفسها أيضاً، والتي هاجرت على إثرها جماعات من المسلمين إلى بورما، وأطلق عليهم البورميون اسم «بانثاي».

مع ذلك، فإنّ مشهد القمع والاضطهاد المتكرر للمسلمين لم يكن هو الوحيد في ذلك العصر، فبالنسبة إلى أعداد كبيرة من المسلمين في مناطق كثيرة من الصين، فإنّهم لم يتأثروا بتلك الاضطرابات. وقد تميّز هذا العصر بانتشار الطرق الصوفية بين مسلمي الصين، ومن أشهر الطرق التي انتشرت: النقشبندية (بفرعيها: الجهرية، والخفية)، والكبروية، والقادرية.

العهد الجمهوري... الاندماج في الجمهورية الجديدة

وبالنظر إلى المواجهة الممتدة التي خاضتها جماعات من المسلمين الصينيين مع إمبراطورية «تشينغ»، فقد كان موقف المسلمين بالمجمل هو الانحياز لثورة العام ١٩١١، التي نتج عنها نهاية الحكم الإمبراطوري وقيام الجمهورية الصينية المعاصرة. وقد أعلن الحكم الجمهوري في دستوره أنّ الأمّة الصينية تتكوّن من (٥) عناصر يُشكّل المسلمون أحدها، وقد انضمت أعداد كبيرة من المسلمين للحزب الوطني الحاكم (الكومينتانغ).

وخلال الحرب الصينية ـ اليابانية في الثلاثينيات والأربعينيات قاتل العديد من المسلمين، وخاصّة من قومية «الهوي»، و«سالار»، و«دونغشيانغ»، في الحرب إلى جانب القوّات الصينية، وتعزز بذلك موقعهم ضمن السردية التاريخية الوطنية؛ باعتبارهم قد شاركوا في حروب الاستقلال، وقدّموا التضحيات في سبيل الأمّة الصينية. وكان دافع المسلمين وراء المشاركة بالحرب يعود بالأساس إلى الاضطهاد والقمع الذي قام به اليابانيون بحقهم، والذي شمل تدمير مساجد ومجتمعات المسلمين.

إلّا أنّ الاتجاه نحو الاندماج في الجمهورية لم يكن هو الاتجاه السائد بين جميع مسلمي الصين؛ ففي «تركستان الشرقية» تأجّجت مساعي الانفصال لدى الإيغور،

مسلمون صينيون في مدينة أورومتشي في مسيرة لإحياء الذكرى الـ٦١ لانتصار الثورة الشيوعية عام ٥٦٩١

ووقعت عدّة معارك عُرفت بـ «حروب تركستان الشرقية»، في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، إذ استغل الانفصاليون ظروف الحرب الأهلية الصينية وحاولوا الاستقلال، وبعد انتصار الحزب الشيوعي في الحرب الأهلية الصينية، قامت الحكومة الشيوعية بقمع ثورات الإيغور وإخمادها.

تحت الحكم الشيوعي... اضطهاد وانفتاح

مع سيطرة الحزب الشيوعي على الحكم في الصين وقيام جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ اتجه الشيوعيون لمهادنة المسلمين، وذلك باعتبار أنّ نسبة كبيرة منهم كانوا منحازين إلى جانب الحزب الشيوعي في الحرب الأهلية الصينية، وخاصّة في المرحلة الأخيرة منها (١٩٤٥-١٩٥٠). واستمرّت مرحلة المهادنة هذه قرابة (١٠) أعوام، حتى حدود العام ١٩٥٨، وكان نظام الحكم الجديد منشغلاً في حينه بتوطيد دعائم النظام بعد الثورة.

إلّا أنّه بعد عام ١٩٥٨ بدأ التطبيق الصارم لنظام «الكميونات»، وهو نظام مشاعيّ، وبموجبه جرت مصادرة أملاك الأوقاف الإسلامية، وشمل تطبيق النظام رجال الدين المسلمين، فجرى توزيعهم على المزارع والمصانع الجماعية ليعملوا فيها، وبدأت إجراءات إغلاق المساجد باعتبار أنّ عددها كبير ولا حاجة لها جميعها، وذلك مع التوجه لتحويلها إلى منشآت اقتصادية منتجة،

«في مرحلة الثورة الثقافية بلغ التضييق على الشعائر الدينية - بما فيها الإسلامية - ذروته»

وتوقفت رحلات الحج إلى مكّة، وقد واجه المسلمون هذه الإجراءات بالتمرّد والرفض، كما حدث في تركستان الشرقية عام ١٩٦٢.

وجاءت المرحلة الأشدّ مع حلول العام ١٩٦٦، وهو العام الذي أعلن فيه الزعيم «ماو تسي تونغ» عن «الثورة الثقافية»، التي استمرت حتى وفاته عام ١٩٧٦، وفي هذه المرحلة بلغ التضييق على الشعائر الدينية -بما فيها الإسلامية- ذروته، وجرت مصادرة المصاحف والكتب الدينية، وأغلقت المساجد، وألغيت العطلات الإسلامية، ومُنع المسلمون من ارتداء ثيابهم الخاصّة، وألغيت تصاريح صرف أكفان الموتى، وألزم المسلمون بحرق جثث موتاهم، كما يفعل سائر الصينيين.

ومع نهاية «الثورة الثقافية»، وانطلاق عهد الانفتاح الذي أطلقه الزعيم الصيني، دينغ شياو بينغ، عام ١٩٧٨، وُضع قانون ينصّ على عدم انتهاك أعراف وعادات أبناء الأقليات القومية. وسُمح باستئناف بعثات الحج، وأعيد فتح المساجد المغلقة، وتمّت إعادة العطلات الإسلامية، وسُمِحَ بدخول المصاحف من الدول العربية، وأعيد فتح المدافن الإسلامية، وسُمح بدفن الموتى وعدم إحراق الجثث، وما زالت هذه المرحلة من الانفتاح مستمرّة حتى اليوم.

ومن أهمّ مظاهر ممارسة المسلمين لشعائرهم انتشار المطاعم المعروفة بـ «المطاعم الإسلامية»، وهي تحديداً المطاعم التي تلتزم بعدم تقديم لحم الخنزير. ويذكر المفكّر المصري فهمي هويدي في كتابه «الإسلام في الصين»، الذي نشره عام ١٩٨١ بعد رحلة قام بها إلى الصين: «ما من مسؤول لقيته في بكين وشنغهاي، وناقشته في موضوع المسلمين، إلّا وحاول أن يدلل على التزام الحزب والدولة بسياسة حرّية الاعتقاد بـ(٣) أشياء: أنّ المساجد يُعاد فتحها تدريجيّاً، وأنّ المطاعم الإسلامية منتشرة في كل مكان، وأنّ تقاليد تشييع موتى المسلمين ودفنهم تؤخذ بعين الاعتبار».

ويُضيف مُعلقاً: «تبلور إيمان المسلم في الصين وتعبيره عن هذا الإيمان في مسألة الامتناع عن أكل لحم الخنزير بالدرجة الأولى. ونما هذا الفهم بمضيّ الوقت، حتى أصبح المسلمون مستعدين لقبول أيّ شيء من المسلم، إلّا أن يأكُل لحم الخنزير، وبات الخنزير هو الحدّ الفاصل بين الإيمان والكُفر، في مناطق وسط وجنوب الصين! فآكل الخنزير «كافر» يسبّه المسلمون ويهينونه، ويرفضون تزويجه من بناتهم، وإذا امتنع عن أكله، وفعل أيّ شيء آخر، فهو «عاصٍ» فقط!».

كلمة «حلال» بجانب اسم أحد المطاعم الإسلامية في الصين

واليوم، بات الحضور الإسلامي في الصين يكتسب أبعاداً جديدة، وذلك في ظلّ التوجهات والرؤى الاستراتيجية الصينية التي باتت تتمحور حول ضرورة الانطلاق، ومدّ الصِلات مع الخارج، وبناء شبكات من الاستثمارات والمشاريع، ضمن محاور تُعزّز النمو الاقتصادي الصيني، وهو ما يتطلّب تعزيز العلاقات مع الدول التي تتقارب مع الصين وتتوافق مع رؤاها، وبما أنّ جزءاً أساسياً من المشاريع الصينية الطموحة التي تأتي ضمن مشروع «الحزام والطريق» - المعروف بـ «طريق الحرير الجديد» - يقع في آسيا وأفريقيا في مناطق العالم الإسلامي، فإنّها باتت توظف الحضور الإسلامي فيها لتعزز من حضورها الناعم وتأثيرها في هذه البلدان وزيادة زخمها ونفوذها الاقتصادي فيها، وبحيث يبرز الإسلام كأحد المشتركات وعوامل التقارب المهمّة مع الدول المسلمة ذات المكانة المهمّة ضمن «الحزام والطريق».

الإسلام في الهند:

التجاور مع الهندوسية..
وجذور الطائفية والعنف الديني

تعتبر الهندوسية ثالث أكبر ديانة في العالم بعد الإسلام والمسيحية، وهي تتميز بكون (٩٤٪) من أتباعها يعيشون ضمن حدود دولة واحدة هي الهند؛ إذ يشكلون ما نسبته نحو (٨٠٪) من إجمالي سكان البلاد، ما خلق قدراً من التماهي والتداخل ما بين الهوية الهندوسيّة وهوية البلاد. بينما يسجل الإسلام حضوراً مهماً وبنسبة تقارب الـ (١٥٪) من إجمالي السكان، ومع حضور لميراث حضاري وروحي

حدود سلطنة دهلي في أقصى اتساع لها.. في عهد السلالة التغلقية (١٣٢١-٨٩٣١)

وتاريخي هام على مستوى ثقافة وتاريخ البلاد، وبحيث خلق تجاور الديانتين في الدولة ذاتها حالة فريدة من الالتقاء بين ديانتين كبيرتين ووفق ظروف سياسية واجتماعية وثقافية فريدة.

مرحلة الهيمنة الإسلامية

كانت شبه القارة الهندية دائماً على اتصال مع شبه جزيرة العرب، وكانت رحلات التجار العرب تصل باستمرار إلى السواحل الهندية، وبعد الإسلام كانوا إحدى السبل والقنوات الأولى التي وصل الإسلام عبرها إلى الهند. وعلى مستوى آخر، كان القائد الأموي محمد بن القاسم الثقفي، أول من تمكّن من التوغل عسكرياً في الأجزاء الشمالية من شبه القارة الهندية، وبالتحديد فيما يعرف بـ «بلاد السند» (في باكستان اليوم) وكانت فتوحاته هناك ما بين عامي ٩٠ و٩٦ للهجرة، وذلك إثر استغاثة التجار المسلمين هناك بعد تعرضهم لهجمات من قراصنة «الديبل» في السند.

إلا أنّ توغّل السيطرة والحكم الإسلامي في شبه القارة الهنديّة لم يتحقق إلا بحلول القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، وذلك تحديداً على يد الدولة الغزنوية، التي انطلقت وتأسست في مدينة «غزنة» - الواقعة في أفغانستان اليوم - عام ٩٦١ للميلاد. وبرز في هذه الدولة القائد محمود الغزنوي، الذي

«ساهمت سياسات الاستعمار البريطاني في خلق وتوسعة الخلافات والفجوات بين الهندوس والمسلمين»

قاد ١٧ حملة عسكرية في الهند، وتمكن من بسط سيطرته على معظم المناطق الواقعة في باكستان اليوم، إضافة إلى مناطق واقعة ضمن شمال الهند اليوم. وقد عرفت فتوحات محمود الغزنوي بشراستها وكذلك بقيامه بهدم أصنام الهندوس الكبرى، فظلّت شخصيّة مكروهة ومرتبطة بصورة الغازي المحتلّ لدى عموم الهندوس في الهند حتى هذا اليوم.

وخلال القرن الـ ١٢ الميلادي بدأت الدولة الغزنوية تتهاوى وخلفتها الدولة الغوريّة التي قامت بتأسيسها القبائل الغوريّة الأفغانية، الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم تحت خدمة حكام الدولة الغزنويّة قبل أن يؤسسوا دولتهم الخاصة ويقوموا بالقضاء على آخر سلاطنة الغزنويين. وتمكّن الغوريون من اقتحام السهول الشمالية للهند وبسط سيطرتهم عليها. ومن رحم هذه السلطنة تأسست مع مطلع القرن الـ ١٣ الميلادي السلطنة التي عُرفت باسم «سلطنة دهلي»، على يد قطب الدين أيبك، القائد المملوكي الذي كان أبرز قادة شهاب الدين الغوري، آخر سلاطين الدولة الغورية، وقد خلف أيبك شهاب الدين في الحكم وأسس «سلطنة دهلي» المملوكية (سلطنة مماليك الهند)، والتي ورثت الدولة الغورية وحكمها المماليك نحو (٩٠) عاماً. وامتدت مناطق حكم المماليك من دهلي جنوباً (نيودلهي اليوم) إلى لاهور شمالاً (في باكستان اليوم)، ومن الكوجرات غرباً، إلى البنغال شرقاً (بنغلادش اليوم).

ومن ثم ورثت المماليك السلالة الخَلْجية التي بدأت عام ١٢٩٠، واستمرت مدة (٣١) عاماً ثم سقطت، وحلّت مكانها الدولة التغلقيّة التي حكمت سلطنة دهلي في معظم القرن الـ ١٤ الميلادي، وبالتحديد خلال الفترة: ١٣٢١-١٣٩٨، وقد حكم التغلقيون أغلب مساحة الهند الحالية.

ومع نهاية عهد الدولة التغلقية تزايدت الاضطرابات في الهند، وكانت آخر سلالة حكمت سلطنة دهلي هي سلالة اللودهيين، وذلك في الفترة: ١٤٥١ و١٥٢٦ إلى أن سقطت دولتهم على يد القائد ظهير الدين بابر مؤسس السلطنة المغولية في الهند.

وكانت سلطنة «مغول الهند» آخر السلطنات الإسلامية التي حكمت في الهند، واستمرّ حكمها أكثر من ٣ قرون، ما بين أعوام ١٥٢٦ و١٨٥٧. وأسسها «ظهير الدين

رسم يصوّر القمع البريطاني للمسلمين المنتفضين في بداية عهد «الراج البريطاني»

بابر» الذي قدم من منطقة «وادي فرغانة» في وسط آسيا، وهو ينحدر من نسل «تيمورلنك»، عن طريق أبيه، و«جنكيز خان»، عن طريق أمه. وبَلَغت السلطنة أوجها أثناء عهد السلطان «أكبر» (١٥٥٦-١٦٠٥)، والذي أكمل سيطرته على كامل بلاد «هندوستان» (باكستان وشمال الهند) وزحف إلى الشرق حتى البنغال، وأدخل كل المناطق الواقعة هناك تحت سلطته. وكان السلطان «أورنك زيب» آخر السلاطين الكبار في هذه الدولة وامتدت فترة حكمه من عام ١٦٥٨ وحتى ١٧٠٧، ووصلت مناطق سيطرته إلى الأجزاء الجنوبية من الهند وشملت معظم شبه القارة الهندية. وقد تميّزت سلطنة المغول في الهند بثرائها وازدهارها الاقتصادي، إضافة إلى تسامحها مع الثقافات والأديان المختلفة في الهند ووجود قدر عالٍ من التعايش بين الأديان في ظل حكمها، وتحديداً بين الديانات الثلاث: الإسلام، والهندوسية، والسيخيّة.

تبلور وصعود القومية الهندوسية

وفي مقابل تمدد حكم السلطنات الإسلامية بدأت تظهر إمبراطوريات هندوسيّة جاءت في ظل تبلور وتصاعد حركة قوميّة هندوسيّة مناوئة للتوسّع الإسلامي باتجاه جنوب الهند، وبدأت تستند هذه الحركة الهندوسية على علم اللاهوت الهندوسي وتعتمد كتاب «الفيدا» مصدراً رئيسياً للقوانين والتشريعات. وكانت إمبراطورية «فيجايانجار» (١٣٣٦ - ١٦٤٦) أول مثال على هذه الإمبراطوريات الهندوسيّة القوميّة.

ومن ثم برزت إمبراطورية «ماراثا» (١٦٤٧ – ١٨٢٠)، والتي تمكّنت من السيطرة

«بينما كان غاندي ونهرو يطمحان لإعلان الهند كدولة علمانية، كان المتشددون الهندوس يؤكدون على عدم رغبتهم في التعايش مع المسلمين ضمن حدود دولة واحدة»

على أجزاء كبير من شبه القارّة الهنديّة، وبخاصّة في القرن الـ ١٨، وكان لها دور أساسي في تقويض حكم سلاطين المغول في الهند، ومن خلالها تبلورت القومية الهندوسيّة في قالب يجمع ما بين المرجعية الهندوسية الدينية والكيان السياسي الممثل للهندوس، وبذلك باتت في الهند قوتان متناوئتان تتنافسان على الحكم، واحدة تمثل الإسلام والمسلمين، وأخرى تمثّل الهندوس والهندوسية، وهو ما تفاعل باتجاهات أخرى مع وصول البريطانيين وتمكنهم من استلام زمام السلطة في الهند، خلال القرن الـ ١٩ الميلادي.

الاستعمار البريطاني.. سياسات خلق وتكريس الطائفية

دخلت شركة الهند الشرقية البريطانية إلى الهند عام ١٧٥٧، وبعد «معركة بلاسي» سيطرت على منطقة «البنغال» في شمال شرق الهند، وخلال مئة عام كان البريطانيون قد سيطروا على أكمل شبه القارة الهندية. وبالتزامن مع تأسيس نظام الحكم المعروف بـ «الراج البريطاني» في الهند، عام ١٨٥٨، اندلعت انتفاضة شعبية واسعة ضد الاستعمار البريطاني في الهند، تم قمعها من قبل البريطانيين. وخلال تلك الأحداث، اعتبرت الحكومة البريطانية المسلمين الهنود السبب الرئيسي وراء اندلاع الانتفاضة والتصعيد ضد حكمهم. ومن ثم تبلور التوجه لإضعاف المسلمين الهنود، عبر خلق الخلافات بين الجماعات المسلمة، واعتمدت بريطانيا سياسة تقوم على استبعاد المسلمين من المناصب في الحكومة والمؤسسات، فضلاً عن خلق الكثير من العوائق لمنعهم من الاستمرار في أعمالهم الاقتصادية. وبالمقابل قربوا الهندوس والسيخ ومنحوهم مفاصل الحكم. كما عمل الإنجليز على تنفيذ إجراءات تستهدف المسلمين وكيانهم، فهدموا المساجد، وصادروا الأملاك والأوقاف.

لقد ساهمت سياسات الاستعمار البريطاني في خلق وتوسعة الخلافات والفجوات بين الهندوس والمسلمين، وذلك بهدف ترسيخ حكم الاستعمار لأطول فترة ممكنة، ما كرّس الطائفية وزاد من حدّتها وحضورها في الهند، وهو ما سيكون له تأثيره وانعكاساته التي ستستمر خلال المراحل اللاحقة.

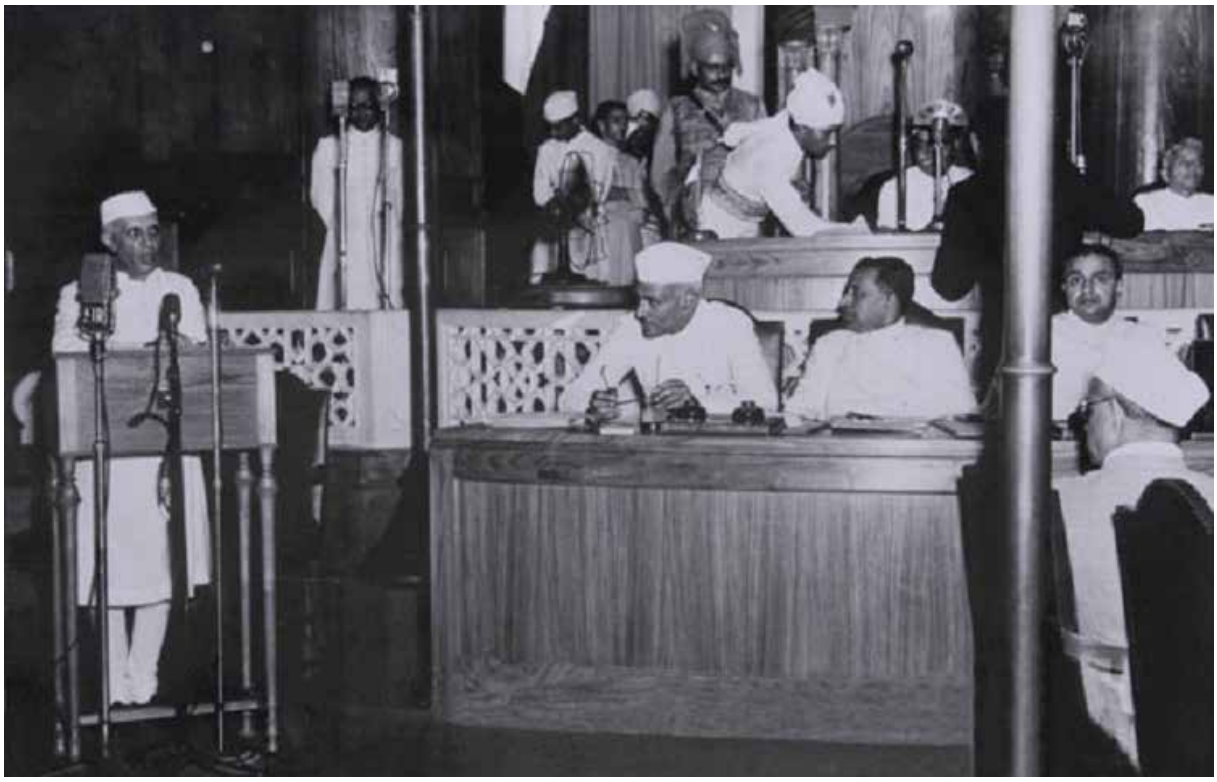

جواهر لال نهرو يقرأ خطابه، عشية يوم إعلان استقلال الهند عقب إقرار التقسيم

التقسيم.. الحصيلة النهائية لقرن من الاستعمار

في سنوات عقد الثلاثينيات تصاعد النضال من أجل الاستقلال في الهند، وكان يقود الحراك الوطني منذ أواخر الـ ١٩، حزب المؤتمر الوطني الهندي، وأبرز قادته: غاندي، وجواهر لال نهرو. وعندما أضعفت الحرب العالمية الثانية قبضة بريطانيا على مستعمراتها، تحققت أهداف الحركة الوطنية وذلك مع قرار بريطانيا إنهاء وجودها في شبه القارة الهندية وتسليم السلطة إلى إدارة هندية وطنيّة، إلا أنه سرعان ما برزت الخلافات المحلية بخصوص الصيغة المقترحة لإدارة البلاد، فكان هناك مقترح يقضي بتقسيم البلاد إلى ٣ أقاليم فيدرالية، واحد للهندوس، وواحد للمسلمين، وثالث للسيخ، وفي المقابل برزت الاتجاهات الرافضة لصيغة الوحدة فتصاعد الاتجاه المنادي بتقسيم البلاد ومنح المسلمين دولة خاصّة بهم.

فبينما كان غاندي ونهرو يطمحان لإعلان الهند كدولة علمانية، كان المتشددون الهندوس يؤكدون على عدم رغبتهم في التعايش مع المسلمين ضمن حدود دولة واحدة، وبدأت المعارضة الهندوسية المتشددة بالتحرك ضد أطروحات غاندي ونهرو وتيارهما، مستخدمةً العنف ضد المسلمين. إثر ذلك وفي آب (أغسطس) ١٩٤٦ بدأت حرب أهلية دموية في الهند، إثر اندلاع أعمال العنف بين الهندوس والمسلمين التي بدأت في

تظاهرة حاشدة ترفع أعلام حزب «بهاراتيا جاناتا» اليميني الهندوسي

كالكوتا، ومن ثم تصاعدت وتسببت بنشر الاضطرابات والذعر في كل ركن من أركان شبه القارة الهندية.

ومع تصاعد الاضطرابات بدأت الكفة ترجح لصالح خيار التقسيم، وفي تموز (يوليو) ١٩٤٧ أقر البرلمان البريطاني قانون استقلال الهند، وأمر بترسيم حدود الهند وباكستان بحلول منتصف آب (أغسطس) من عام ١٩٤٧.

أعمال العنف بعد التقسيم

بعد تقسيم شبه القارة الهنديّة عام ١٩٤٧ هاجر القسم الأكبر من النخب المسلمة من المتعلمين ومن موظفي الحكومة والأطباء ورجال القانون إلى باكستان، وقد أدى ذلك إلى حدوث تغيير في البنية الاجتماعية للمسلمين في الهند؛ إذ باتت غالبية المسلمين من المنحدرين من المناطق الريفية، من غير المتعلمين ومن أصحاب الحرف الأدنى والفلاحين، وهو ما تسبب في تراجع وتردي الأوضاع السياسية والاقتصادية للمسلمين في الهند، وغاب حضورهم على المستوى السياسي والإداري، وهو ما أسهم بالمحصلة في تعميق الشرخ الطائفي بين المسلمين والهندوس في الهند.

وتصاعدت الطائفية في مرحلة ما بعد الاستقلال، وتحديداً بعد وصول رئيسة الوزراء أنديرا غاندي إلى الحكم عام ١٩٦٦، إذ بدأت الأحزاب، الهندوسيّة اليمينيّة خاصةً، تتجه نحو اعتماد أجندة سياسية تقوم على أساس الطائفية بهدف

«اتجهت الأحزاب الهندوسيّة اليمينيّة نحو اعتماد أجندة سياسية تقوم على أساس الطائفية بهدف التحشيد وكسب أكبر عدد من الأصوات»

التحشيد وكسب أكبر عدد من الأصوات. وكان من أبرز الأحداث الطائفية: أعمال العنف التي وقعت بولاية «غوجارات» عام ١٩٦٩، وأعمال العنف في مدينة «بيواندي» عام ١٩٧٠، وأعمال شغب «بومباي» و«نيلي» عام ١٩٨٣، و«بهاجالبور» عام ١٩٨٩، وفي «غوجارات» عامَيْ ٢٠٠٢ و٢٠١٣.

وقد تركّزت معظم الحوادث في الولايات الشمالية والغربية للهند حيث ترتفع نسبة المسلمين. وكان من بين أبرز الأحزاب السياسية المتطرفة التي غذّت الصراع الأحزاب الهندوسية اليمينية، مثل حزب «بهاراتيا جاناتا» (بي جاي بي، وهو الحزب الحاكم الحالي في الهند)، و«شيف سينا»، إذ إنها اعتمدت على حوادث العنف لحشد الناخبين وراء خطابها المتشدد وبالتالي حصد المزيد من الأصوات.

ويتكَرر في خطاب اليمين الهندوسي تكرار التحذير من الخطر الإسلامي، وذلك مع التمَحوُر حول تحذيرات معيّنة، من قبيل التحذير من ارتفاع معدل الخصوبة بين المسلمين، إذ يجري التأكيد على أنّ ارتفاع معدل المواليد بين المسلمين هو جزء من خطة تهدف إلى تحويل الهندوس إلى أقليّة داخل بلدهم، كما يؤكد خطاب اليمين الهندوسي، منذ التقسيم، على تحالف المسلمين الهنود مع باكستان ضد الهند ليقدموهم بذلك كعدوّ داخلي، بالإضافة إلى اعتبارهم «إرهابيين» محتملين، وخاصّة مع تصاعد خطاب الإسلاموفوبيا والحرب على الإرهاب منذ العقد الأخير من القرن العشرين.

مشكلة المسلمين في الهند ليست سياسية وحسب، بل هي ذات أبعاد اجتماعية وثقافية واقتصادية؛ إذ لم تبذل الحكومات الهندوسية المتعاقبة ما هو كافٍ لدمج المسلمين في مجتمع هندي تعدديّ. بل على العكس تماماً فقد استخدم اليمين الهندوسي كل ما لديه لزجّ المسلمين في خانة الأقليات، وذلك ضمن خطاب يقدمهم باعتبار أنهم ينبغي عليهم دفع ثمن ما قام به آباؤهم الذين غزوا الهند، والنتيجة أنّ كل طائفة دينية نأت بنفسها عن الأخرى، وأصبحت الهند مجتمعاً مفككاً، يضمّ طوائف مختلفة تعيش منفصلة بعضها عن بعض.

الإسلام في البلقان...
انبعاثٌ في سياق الأزمة يلتقي بمساعي التوسع التركي

يُشكّل الإسلام ثاني أكبر ديانة في البلقان، وينتشر المسلمون خاصّة ضمن ما يُعرف بـ «الهلال الإسلامي»، الممتد في دول البوسنة والهرسك، وألبانيا، ومقدونيا، وكوسوفو. وتتراوح نسبهم ما بين (٤٠٪) في مقدونيا إلى (٩٥٪) في كوسوفو. وخلال عقد التسعينات، ونتيجة لتفكك الدولة الفيدرالية في يوغوسلافيا وولادة دول عديدة، ومع استخدام النظريات الإثنية لتبرير التفكّك، ظهرت المجتمعات الإسلامية كفاعل بارز، وهو ما صاحبه تحولات مهمّة على المستوى الداخلي، تمثّلت في صعود حركات الإسلام السياسي، وعلى المستوى الخارجي تمثل في تضاعف مستويات

لوحة تصوّر معركة «نيكوبوليس» التي هزم فيها العثمانيون الجيوش الأوروبية عام ٦٩٣١

التفاعل والصلات مع دول الجوار الإقليمي، وخاصّة تركيا، التي باتت تمتلك حضوراً فاعلاً بعدما كان دورها غائباً خلال العقود السابقة.

البدايات... الدخول العثماني العنيف

بدأ التفاعل الإسلامي مع البلقان بالتصاعد منذ السيطرة الإسلامية في عهد الأغالبة على جزيرة صقلية (جنوب إيطاليا) في القرن الـ١٠ الميلادي؛ إذ ترتبط الموانئ في غرب البلقان بالجزيرة من خلال خطوط التجارة البحرية. إلّا أنّ التحول والتفاعل الأوسع جاء لاحقاً مع التوغل العثماني في شبه جزيرة البلقان، وذلك منذ فترات تعود إلى النصف الثاني من القرن الـ١٤ الميلادي، وتحديداً بعدما هزم العثمانيون التحالف المسيحي في معركة «ماريتسا» عام ١٣٧١، ومن ثم جاء الانتصار العثماني الحاسم في معركة «سهل قوصوه» (كوسوفو) عام ١٣٨٩.

وبحلول عام ١٣٩٤ كان العثمانيون قد نجحوا في إخضاع مناطق واسعة من بلغاريا، وبعد معركة «روفين» في أيار (مايو) ١٣٩٥، ومعركة «نيكوبوليس» (أقصى شمال بلغاريا) عام ١٣٩٦، تمكّن السلطان العثماني بايزيد بن مراد من السيطرة على كامل بلغاريا. ومن ثم، وخلال القرن الـ١٥، خاضَ العثمانيون سلسلة من المعارك مع الصرب في غرب البلقان، في مقدونيا، وكوسوفو، والبوسنة، وفي عمق صربيا ذاتها. وامتدت المعارك إلى أقصى غرب شبه الجزيرة، نحو ألبانيا، وقد استمرت المقاومة الألبانية حتى عام ١٤٧٨

«الإخضاع العسكري العثماني للبلقان لم يكن يعني بالضرورة دخول سكانه في الإسلام؛ إذ ظلّ الجزء الأكبر منهم يدفع الجزية، وخاصة الصرب والبلغار»

حين انهارت، وأخضع العثمانيون ألبانيا، وجاء النصر العثماني الحاسم في البلقان حين سقطت بلغراد وتمكّن العثمانيون من دخولها عام ١٥٢١.

إلّا أنّ الإخضاع العسكري العثماني للبلقان لم يكن يعني بالضرورة دخول سكّانه في الإسلام؛ إذ ظلّ الجزء الأكبر منهم يدفع الجزية، وخاصة الصرب والبلغار، وكانت الحالتان اللتان تحقق فيهما الدخول الأوسع في الإسلام، هما لدى كلٍّ من «البُشناق» (البوسنيون)، والألبان. وفي حالة البُشناق، فإنّهم، قبل وصول العثمانيين، كانوا على مذهب مسيحي يُسمّى «بوغوميل»، وكانوا يتعرضون منذ القرن الـ١٣ لاضطهاد الكاثوليك الرومان، وزاد الاضطهاد في القرن الـ١٥، وفي ذلك السياق تقبل البُشناق دخول الأتراك كبديل عن اضطهاد الكاثوليك، وعندما تعرّف البُشناق على مبادئ الإسلام اعتنقوا الإسلام، وكانت معتقدات كنيستهم أقرب إلى المعتقدات الإسلامية، وذلك من حيث رفض تأليه المسيح والاعتقاد ببشريّته، وقد حظي البُشناق بمناصب مهمّة في الدولة العثمانية، وكان من أشهر القادة البُشناق: أحمد باشا الجزار، والي صيدا ودمشق لولايات عدة في فترة أواخر القرن الـ١٨وبداية القرن الـ١٩.

أمّا الألبان، فقد تأخر دخولهم في الإسلام على نطاق واسع حتى القرنين الـ١٧ والـ١٨، حين تحولت النسبة الأكبر منهم إلى الإسلام، ممّا أتاح فرصاً أمامهم للترقي ضمن الدولة العثمانية، وكان من أبرز قادتهم: محمد علي باشا، القائد العسكري العثماني الذي تمكن من التربع على عرش الحكم في ولاية مصر عام ١٨٠٥.

الدين والهوية القومية... افتراق أم اقتران؟

يتباين مسلمو البلقان من حيث التوحيد والمماهاة بين الهوية الدينية والقومية؛ وتبدو هذه المماهاة بشكل أكبر في حالة البُشناق والأتراك، أمّا في ألبانيا، فتتدنى وتكاد تكون غائبة. ويمكن فهم الحالة الألبانية من خلال تتبع تشكّل وصعود القومية الألبانية التي جاءت متأثرة بصعود القوميات في أوروبا خلال القرن الـ١٩، وقد تبلورت الحركة القومية

مسجد أدهم باي في العاصمة الألبانية تيرانا... يعود تاريخ بنائه إلى القرن الـ٨١

الألبانية في «عُصبة بريزرن»، التي تشكلت عام ١٨٧٨، إثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب ضد روسيا القيصرية. وشهدت مرحلة نهاية القرن الـ١٩ تبلور ما عُرف بـ «النهضة الألبانية»، التي كانت عبارة عن حركة ثقافية وسياسية واجتماعية ركزت على تجمّع الشعب الألباني على أسس ثقافية وسياسية مستقلة، وبشكل خاص على أساس الانفصال عن النظام السياسي العثماني، المعروف بـ «نظام الملل»، والذي كان ينظر إليه باعتباره نظاماً دينياً رجعياً يميّز بين المكوّنات على أساس الديانة والطائفة، وبالتالي ارتبطت القومية الألبانية بالتوجه العلماني، وهو ما جاء بدافع من أسباب أخرى أيضاً، أهمها أنّ نسبة مهمّة من الألبان (حوالي ٢٥٪) يعتنقون المسيحية الأرثوذكسية، وبالتالي فإنّ العلمانية كانت خياراً للجمع بين مكوّنات القومية الألبانية وتوحيدها.

أمّا حالة البُشناق، فقد كانت مختلفة؛ إذ إنّه بعد هزيمة العثمانيين في الحرب مع روسيا عام ١٨٧٨، نال الصرب استقلالهم، ومن ثم أُعلن قيام مملكة الصرب في عام ١٨٨٢، بينما أصبحت مناطق كرواتيا، وسلوفينيا، والبوسنة والهرسك، تدريجياً تحت إمرة «الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية»، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتقسيم الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، اتحدت صربيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، باسم «مملكة صربيا وكرواتيا وسلوفينيا»، والتي ضمّت أراضي البوسنة والهرسك ضمنها، وفي هذا السياق، وجد البُشناق أنفسهم أقليّة ضمن دولة ذات

«يتباين مسلمو البلقان من حيث التوحيد والمماهاة بين الهوية الدينية والقومية؛ وتبدو هذه المماهاة بشكل أكبر في حالة البُشناق والأتراك، أمّا في ألبانيا، فتتدنى وتكاد تكون غائبة»

أغلبية مسيحية، وبذلك بدأ انفصال البُشناق على الأساس الإسلامي، وتعزز تداخل الدين بالقومية لديهم، ليختلفوا في ذلك عن حال الألبان.

واشتدّ الارتباط بين القومية والدين لدى البُشناق مع دخول البوسنة الحروب اليوغوسلافية في التسعينات؛ إذ برزت القضية البوسنية باعتبارها قضية إسلامية، وأصبح الإسلام الأساس الذي تقوم عليه عملية تشكيل الهوية البوسنية الانفصالية عن الصرب والكروات، وبحيث بات الدين عامل توحيد بالنسبة إلى المسلمين البوسنيين، ووسيلة لتمييز هويتهم التاريخية- الثقافية عن الصرب والكروات.

الأزمات والتفكك... وصعود الإسلام السياسي

بدأت الصحوة الإسلامية بين المسلمين في يوغوسلافيا خلال عقد السبعينات من القرن الماضي، متزامنةً مع بروز ظاهرة الصحوة في سائر الأقطار الإسلامية الأخرى، وجاءت مدفوعةً بالتحويلات المالية من العمالة البوسنية في الخارج، والتي ساهمت في إعادة بناء وترميم بعض المساجد، وأسهمت المساعدات القادمة من دول عربية بدفع الصحوة، واتجهت هذه المساعدات لتمويل المساجد ومدارس تعليم القرآن.

على المستوى النظري، بدأ فكر الإسلام السياسي بالتبلور في البوسنة عندما نشر علي عزت بيجوفيتش، الذي سينتخب في التسعينيات رئيساً للبوسنة، كتابه «الإعلان الإسلامي» عام ١٩٧٠، وأكد فيه على ضرورة تطوير علاقة أوثق بين الدين والسياسة، ضمن إطار أخلاقي منفتح، وبدون أن يكون الهدف النهائي إقامة دولة إسلامية، وهو الكتاب الذي سُجن بسببه في سجن «موشا» مدة (١٣) عاماً.

وفي التسعينيات، خلال أعوام الحرب، تصاعد الشعور بالهوية الإسلامية لدى البوسنيين، وتزامن ذلك مع وصول الجهاديين الذين أسسوا لوجود حالة من الإسلام السياسي الراديكالي في البلاد، وقد بقي بعضهم في البوسنة حتى بعد توقيع «اتفاقية دايتون للسلام» وإنهاء الحرب عام ١٩٩٥، مشكلين جيوباً لحركة

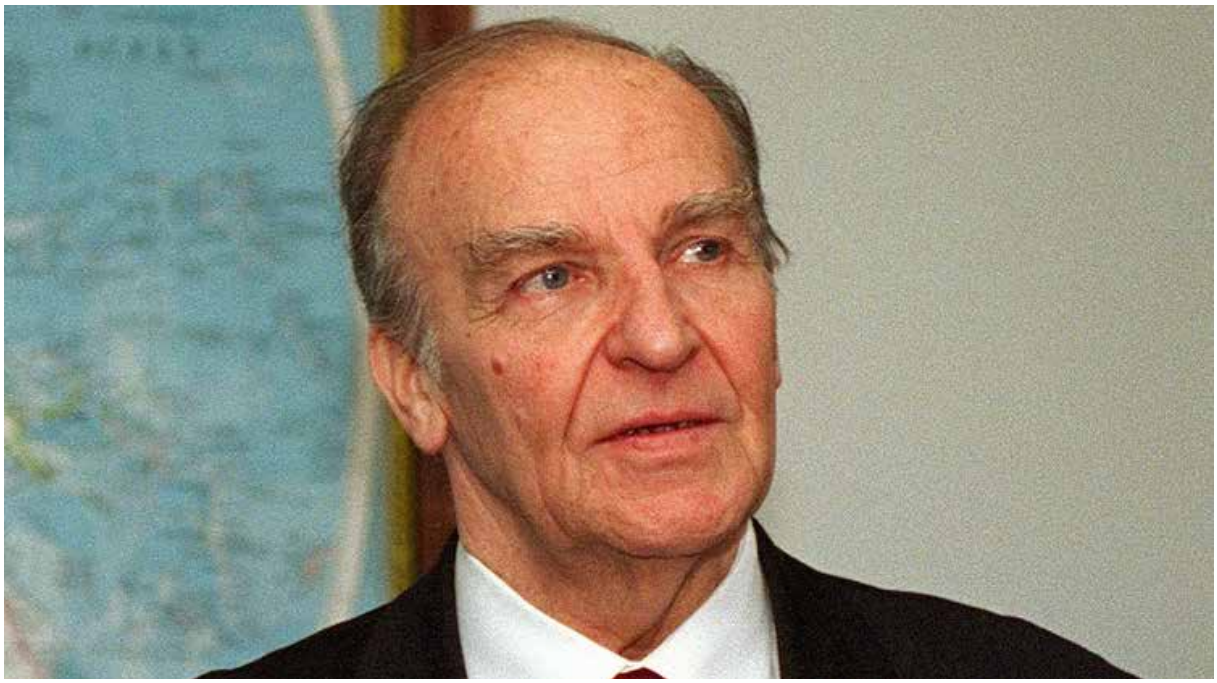

علي عزت بيجوفيتش أول رئيس للبوسنة.. يُعتبر كتابه «الإعلان الإسلامي» أول تنظير للإسلام السياسي في البلقان

إسلامية راديكالية تضمّ مجموعات محدودة.

ومع زوال أنظمة الحكم الاشتراكية/الشيوعية في المنطقة، بدأت المجتمعات المسلمة في البلقان تظهر كفاعل سياسي مستقل، ونتج عن ذلك تكوين أحزاب سياسية تمثل المسلمين في الدول البلقانية. ففي البوسنة ظهر كلٌّ من حزب «منظمة البشناق الإسلامية»، و«حزب العمل الديمقراطي»، ويُعتبر الأخير أكبر حزب إسلامي في البوسنة، تأسس عام ١٩٩٠ على يد علي عزت بيجوفيتش، في نهاية العهد اليوغوسلافي.

وظهرت أحزاب إسلامية بين الأقليّات الألبانية كـ «حزب الرفاه الديمقراطي لمسلمي مقدونيا الألبان» في مقدونيا، و«حزب الرابطة الديمقراطية لمسلمي كوسوفو» في كوسوفو، إضافة إلى أحزاب إسلامية ممثلة للأقليات التركية، كـ «حزب الحركة من أجل الحقوق والحريات» الممثل لمسلمي بلغاريا الأتراك، و«الحزب الديمقراطي التركي»، و«الاتحاد الديمقراطي التركي» في كوسوفو، و«الاتحاد الديمقراطي للأتراك المسلمين» في رومانيا، في حين غابت أحزاب الإسلام السياسي عن ألبانيا، واقتصر نشاط ذوي التوجه الإسلامي فيها على الانتساب للحزب الديمقراطي الألباني ذي النزعة المحافظة.

الحضور التركي... نفوذ متصاعد

الصراع الذي شهده عقد التسعينيات أظهر مسلمي البلقان كفاعل سياسي مستقل، وأعاد مسلمي البلقان إلى حاضنة

« مع زوال أنظمة الحكم الاشتراكية / الشيوعية في المنطقة، بدأت المجتمعات المسلمة في البلقان تظهر كفاعل سياسي مستقل، ونتج عن ذلك تكوين أحزاب سياسية تمثل المسلمين في الدول البلقانية »

الأمّة الإسلامية الجامعة، وهو ما بدا من خلال الدعم المادي والمعنوي المُقدّم من الدول الإسلامية، والتي كان من بينها تركيا. إلّا أنّ دعم تركيا كان له طابع خاص؛ باعتبار أنّه جاء كوصل وإعادة استئناف للحضور التاريخي العثماني في المنطقة، فضلاً عمّا يحققه الحضور والنفوذ التركي بالمنطقة من مصالح حيوية لتركيا باعتبارها عمقاً حيوياً لها يربطها بأوروبا.

ويبرز نشاط وكالة التعاون والتنسيق التركية، «تيكا»، التي قامت خلال الأعوام الأخيرة بتمويل بناء عدد من المساجد الكبرى الجديدة في البلقان، ومنها مسجد «ميتروفيتسا»، الأكبر في كوسوفو، وكذلك مسجد «نمازغيا» في تيرانا، عاصمة ألبانيا. ونفذت «تيكا» مئات المشاريع في البوسنة والهرسك، وخاصّة من أجل ترميم التراث العثماني والمساجد التي تعرضت للتدمير خلال أعوام الحرب (١٩٩٢-١٩٩٥)، ومن ذلك أعمال صيانة وإصلاح مسجد «خنكار» أحد أقدم المساجد في العاصمة سراييفو، وأحد أهم رموز عهد السلطان محمد الفاتح في البوسنة والهرسك، فضلاً عن تمويل ورعاية سلسلة من المشاريع الخيرية والتنموية والتعليمية.

إلى جانب ذلك، تدعم تركيا برامج تدريس اللغة التركية في البوسنة والهرسك، فقد باتت التركية تُدرس في (١٥٠) مدرسة من مدارس البلاد، يدرسها فيها نحو (١٠) آلاف تلميذ. ونشرت تركيا مراكزها الثقافية التابعة لمؤسسة «يونس إمري»، وبات هناك (١٤) منها في دول البلقان، وهي معنيّة بنشر الثقافة التركية، وتقديم المنح الدراسية للطلاب في تركيا.

وعلى المستوى الاقتصادي، تنشط الشركات التركية في دول البلقان، وبشكل خاص في قطاعات البنية التحتية والطاقة والاتصالات والمصارف، إذ تشغّل وتدير شركة من شركات «مجموعة ليماك القابضة»، المقرّبة من حزب «العدالة والتنمية»، المطار الرئيسي في بريشتينا، عاصمة كوسوفو، كما تشغّل شركة (ATV) التركية مطار سكوبي، عاصمة مقدونيا الشمالية. وتدير شركة «كارباورشيب» التركية شركة كهرباء كوسوفو. وفي قطاع

أمينة أردوغان زوجة الرئيس التركي ترعى حفل افتتاح أحد المشاريع التي تشرف عليها «تيكا» في البوسنة عام ٩١٠٢

الاتصالات تدير «شركة الاتصالات التركية» شركة الاتصالات الكبرى في ألبانيا (ألب تيلكوم). وتدعم تركيا مشاريع بنى تحتية بهدف تنشيط الحركة التجارية بالمنطقة وبما يعود على زيادة صادراتها، ومن أهم هذه المشاريع الطريق السريع الرابط بين سراييفو (عاصمة البوسنة والهرسك) والعاصمة الصربية بلغراد.

لقد برزت الجماعات الإسلامية في البلقان، بشكل أساسي، في سياق انهيار الدولة اليوغوسلافية وتفككها وما صاحب ذلك من حروب، وتزامن ذلك مع دخول مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ وما صاحب ذلك من تحولات جيوسياسية، كان من ضمنها تحول الاستراتيجية التركية نحو البحث عن أدوار ووظائف جديدة، عبّرت عنها سياسة «العثمانية الجديدة» في عهد الرئيس التركي السابق تورغوت أوزال، ومن ثم توسع في تفصيلها وزير الخارجية التركي السابق أحمد داود أوغلو، في أطروحته «العمق الاستراتيجي»، وهو العمق الذي يُشكّل بالأساس مناطق وكالات تمدد الدولة العثمانية سابقاً، وفي مقدمتها، البلقان، العمق الأوروبي لتركيا، فجاء التفكك اليوغوسلافي وصعود الهويات الإسلامية ليتفق ويتواءم مع استراتيجية بناء وتعزيز النفوذ التركي في شبه جزيرة البلقان.